

مكتبة العلوم

طه حسين

بمباركة من مؤسسة الخصار للدراسات والبحوث

العدد ٢٩٩ • أكتوبر ١٩٩٠ •



جيتا



0143521

Bibliotheca Alexandrina

طه حسين

جنة الحيوان

● العدد ٢٩٩ ● اكتوبر ١٩٨٩ ●



كتاب اليوم

اشتبه
مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

سعيد سنبل

العدد ربيع أول ١٤١٠ هـ

٢٩٩ أكتوبر ١٩٨٩ م

تشرين أول

الصحافة ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوي ١٢ جنيه مصري

البريد الجوي

في الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
البنما	٤٠	شلس
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كرويزو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

دول اتحاد البريد العربي
والأمريكي ١٥ دولار أمريكي او ما يعادله
باقي دول العالم وأوروبا والأمريكتين
وآسيا وأستراليا ٢٠ دولار أمريكي او ما يعادله
● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ١٣ ش الصحافة
القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
قطر	١٠٠	سنت
اليمن	٨	ريالات
الموئل بيجيريا	٨٠	بني
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	ملي
فرنسا	١٠	فرن
ألمانيا	٥	مارك

أسعار
كتاب اليوم

المغرب	١٥	درهم
لبنان	٥٠٠	ليرة
الأردن	٧٥٠	فلس
العراق	٣٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٤٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس

● الغلاف : حسين بيكار

● الرسوم والمالكيت : محمد عفت



الثعبان

كان مشرق الوجه ، باسم الثغر ، خفيف الحركة ،
فصيح اللسان لا يكاد يجلس إلى أحد أو يجلس
إليه أحد ، إلا أحس جليسه منه قلبا يضطرب
تحمسا للإصلاح ، ونفسا تتوثب إلى المثل
العليا ، وعقلا لا يرى حوله إلا شرا ولا يريد أن
يطمئن أو يستقر إلا إذا أزيل الشر ومحيت آثاره
ومعالمه ، وقام مقامه هذا الخير المطلق الذى يشمل كل إنسان ، وكل
شئ ، والذى يسبغ على من يشمله وما يشمله جمالا حلوا هادئا ،
ولكنه قوى ملح كانه ضوء الشمس ، لا يمنح الأشياء والأحباء جمالا
وبهاء فحسب ولكن يبعث فيها وفيهم حياة وخصبا وقوة ونشاط .
وكان تحمسه للإصلاح وطموحه إلى الخير ودعاؤه إلى العدل يخرج
به أحيانا كثيرة عن طوره ، ويتجاوز به الهدوء المألوف إلى شئ من
العنف لم يكن المصريون يعرفونه فى ذلك الوقت ، وإذا هو لا يستقر
فى مكانه مهما يكن هذا المكان فى دار أو ناد أو قهوة أو ديوان ، وإنما
يثب من مجلسه ثم لا يثبت فى مقامه ليتحدث إلى من حوله كما يتحدث
الخطيب ، وإنما يذهب ويجيء ويأتى من الحركات بيديه ما كان يخيف
جلساءه على ما قد يكون حوله من الأشياء ، وإذا آية الغضب تظهر فى
وجهه ، قوية حادة فيظلم بعد إشراق ويعبس بعد ابتسام ، ويتطاير
من عينيه المضطربتين شرر مخيف ، وينفجر من فمه صوت هائل يهدر
بالجمل التى تتتابع سراعا فى مثل قصف الموج وعصف الريح
العاتية ، وإذا أصحابه يأخذهم شئ من الدهش لا يلبث أن يستحيل
إلى وجوم متصل وذهول غريب ، لا يدرون أهما يصوران الإعجاب
والرضى أم هما يصوران الإنكار والسخط أم هما يصوران الحذر
والخوف .

وكان من الحق أم يحذروا أو يخافوا ، فلم تكن الأمور فى ذلك الوقت تجرى فى مصر كما أخذت تجرى منذ كان فى مصر استقلال وحرية ودستور وبرلمان ، وإنما كانت الأمور تسعى متعثرة لا تكاد تنهض إلا لتكبو ولا تكاد تمضى إلا لتقف فقد كان فى مصر احتلال اجنبى يتغلغل سلطانه الظاهر والخفى فى جميع المرافق العامة والخاصة ، وكان فى مصر سلطان لكان وطنى شديد الارتياح عظيم الاحتياط كثير التلون يميل إلى المواطنين مرة وإلى المحتلين مرة أخرى ، ويحاول احيانا أن يرضى أولئك وهؤلاء ، فلا يظفر إلا بغضب أولئك وهؤلاء.. وكان هذا كله يفسد الجو المصرى ويجعله خانقا منهكا للقوى لان الناس كانوا موضوع النزاع بين هاتين السلطتين لا يكادون يرضون إحداهما إلا وفى نفوسهم إشفاق من الأخرى ، وكان لكل واحدة من هاتين السلطتين عيونها وجواسيسها قد انبتوا فى الاندية والقهوات والدواوين واندسوا فى المجالس الخاصة . فهم يحصون على الناس ما يقولون ثم يصورونه كما يحبون ، ثم يرفعونه إلى السلطان الاجنبى او إلى السلطان الوطنى . وإذا آثار ذلك واضحة فيما يكون من رضى هذا السلطان او ذاك ومن غضب هذا السلطان او ذاك . فكان المفكرون وذوو الراى يعيشون فى قلق متصل كأنما يسعون على الشوك فليس غريبا أن يثير صاحبنا فى نفوس جلسائه شيئا من الحذر والخوف إذا أخذته أزمته الإصلاحية تلك ، وكانت كثيرا ما تأخذه فيثور ، أو قل يستحيل إلى ثورة تريد أن تلتهم كل شيء .

وكان صاحبنا حديث عهد بأوربا قد إقاه فيها أعواما متصلة واتم فيها درسه ورأى فيها حياتها الحرة الطامحة التى لا تقيدھا أوضاع النظام الاجتماعى كما كانت تقيد الحياة المصرية فى ذلك الوقت ، ولا تغلها إغلال السلطان السياسى كما كانت تغل حياة المصريين فى ذلك الوقت أيضا ، وإنما رأى حياة سمحة طليقة قد عرفت للإنسان كرامته وللقرء حقه فى أن يأتى ويدع من الأمر ما يشاء . وفى أن يرى ويقول ما يشاء مادام لا يؤذى غيره بقول أو عمل . وقد شارك فى هذه الحياة واستمتع بما كانت تمتاز به من السماح واليسر . وكان كغيره

من المصريين الذين يعيشون فى أوربا لا يكاد يرى شيئا يعرفه أو ينكره إلا وأزن بينه وبين ما يشبهه فى الحياة المصرية من قريب أو بعيد ، وكانت هذه الموازنة تغيظه وتحفظه بالطبع لأنها كانت تضطره دائما إلى أن يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن فى أوربا رقيا ماديا ومعنويا ، وبأن لاهل أوربا حرية فى القول والعمل . وبأن مصر بعيدة كل البعد من هذا الرقى وبأن المصريين قد حرموا هذه الحرية كل الحرمان ، فعاد إلى مصر وللغيط فى قلبه نار تتوهج وللغيرة على نفسه سلطان لا يكاد يهدىء من ثورته أو قورته ، ومن أجل ذلك كان صورة ناطقة حية قوية للسخط على كل شيء والضيق بكل شيء والحرص على تغيير كل شيء . وقد أقبل الشباب عليه حين عاد من أوربا معجبين بل مفتونين . ولكنهم لم يلبثوا أن فتروا ثم تفرقوا شيئا فشيئا ، منهم من رده عنه الخوف ، ومنهم من رده عنه القصور ، ومنهم من رده عنه السأم . ولابد من الاعتراف بأن أحاديث صاحبنا على عنفها وثورتها كانت تغمض أحيانا قيعجز أوساط المثقفين عن فهمها ، وكانت تتكرر أحيانا أخرى فيسأم السامعون لها من كثرة تكرارها . وأكبر الظن أن صاحبنا عاد من أوربا دون أن يتعمق من أمرها شيئا وإنما غرته المظاهر فاعجب بها وخدعته هذه الحضارة الأوربية ففتن بها ، ورأى فى هذا الإعجاب وفى هذه الفتنة شيئا من الامتياز يتملق كبرياءه فاغرق فيهما إغراقا شديدا . وقد كان مالم يكن بد من وقوعه فنذر به السلطان وأشفق منه ونصب له شيئا من كيد خفى حاول أن يثبت له وينفذ منه ولكنه لم يستطع ثباتا ولا نفوذا فاضطر إلى أن يرجع أدراجه ويعود إلى أوربا هذه التى ملكت عليه قلبه ونفسه وفتنته بمحاسنها فتونا . ولم يكد يستقر فى أوربا حتى دهمته الحرب الماضية فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم والظاهر انه انتفع بهذه الإقامة الثانية انتفاعا عظيما فقد عاد من أوربا بعد الثورة المصرية الأخيرة فرأى مالم يكن ينتظر أن يرى . لم ير تغيرا فى الحضارة المادية ولم ير تطورا ذا بال فى الحياة العقلية ولكنه رأى حرية لم يكن له بها عهد ، حرية لا تحفل بمكر الاحتلال الأجنبى ولا باحتياط السلطان الوطنى ولا بالعيون

والجواسيس ، ولا بالأحكام العرفية الانجليزية التي ظلت مفروضة على مصر أعواما بعد انتهاء الحرب ، ولا بهذا الاصطدام العنيف الذى كان يحدث من حين إلى حين بين الشباب المصريين والجنود البريطانيين . رأى حرية لا تحفل بشيء من هذا ، وإنما تمضى أمامها لا تلوى على شيء ولا يردّها شيء ولا تزيدّها العقبات والمصاعب إلا قوة واندفاعا . ورأى المصريين يقولون فى كل شيء لا يتحفظون ولا يتخرجون ، ورأهم ينكرون من أمرهم أكثر مما كان ينكر هو قبل الحرب فهم لا يرضون عن الاحتلال الأجنبى ، وهم لا يرضون عن النظام السياسى الوطنى ، وهم لا يطمئنون إلى حياتهم الاجتماعية ، وإنما يخرجون عليها فى رفق مرة وفى عنف مرة أخرى ، وهم على كل حال يتوثّبون إلى الإصلاح ، ويطمحون إلى المثل العليا ، لا يتحدّثون إذا لقى بعضهم بعضا إلا فى الحق والخير والعدل والحرية والاستقلال والرقى فى الحياة المادية والعقلية .

رأى هذا كله فوقف منه موقف الحيرة لم يدرك أيرضى عنه أم يسخط عليه . ولو أنه جرى مع طبيعته الأولى لرضى كل الرضا عما رأى ولمضى مع مواطنيه جادا فى الإصلاح طامحا إلى الرقى مطالباً بالاستقلال . ولكن إقامته فى أوروبا أثناء الحرب واحتماله ما جرته الحرب على الناس من خطوب ، وما ألقت عليهم من أثقال قد اضطره إلى شيء من المرونة وسعة الحيلة وبذل الجهود الملتوية ليتقى الشر أن عرض الشر وليلتبس الخير أن سنج الخير ، فعاد من أوروبا للمرة الثانية وقد خلّفته الحرب خلقا جديدا . كان قبل الحرب يسبق مواطنيه إلى الرقى والطموح . فأصبح بعد الحرب يستأخر عن مواطنيه ولا يكاد يشاركهم فى توثبهم إلى الرقى والطموح . ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه سيرة وسطا فهو لا يستطيع أن ينكر ماضيه وهو لا يستطيع أن يقاوم هذا الاندفاع المصرى الجارف إلى التطور العنيف وهو فى الوقت نفسه لا يحب أن يشارك مواطنيه فيلهج كما يلهجون بالحرية ، ويحرص كما يحرصون على الاستقلال ويطمع كما يطمعون فى مجارة أوروبا حيناً ومقاومتها حيناً آخر . وقد زاده حرصا على هذه

السيرة الوسط انه قد تعب في أوربا وشقى بما لقي فيها من جهد وضيق ، وعاد إلى مصر وفي نفسه ميل إلى الدعة وحاجة شديدة إلى الراحة . ورغبة ملحة في أن يعوض الوقت الذي أضاعه في أوربا ، وأن يستدرك من أمره ما فات ويحقق لنفسه من المنافع العاجلة والأجلة ما لم يستطع تحقيقه حين كان ثائرا ثائرا مطالباً بالإصلاح . وقد رأى المصريين قد انقسموا فيما بينهم قسمين ، فريق يعتدل ، وفريق يتطرف فلم يرد أن يعتدل مع المعتدلين ، فيعد متأخرا ولا أن يتطرف مع المتطرفين فيتكلف ما يتكلفون من الجهد ويحتمل ما يحتملون من العناء . وقد رسم له هذا كله سيرته الوسط فعرف الثورة المصرية ولم ينكرها ، وأثنى عليها ولم يشارك فيها ، واتخذ لنفسه الأصدقاء والإخلاء من المعتدلين والمتطرفين جميعا ، ولم يقبل في ذلك مراجعة ولا لوما ، فإن الصداقة ترتفع عن السياسة وأعراضها وأمراضها والرجل الحر حقاً هو الذي لا تلهيه السياسة عن إرضاء حاجة قلبه إلى الاخاء الكريم والمودة الصافية والوفاء المتين .

وكذلك كنت تراه في مجالس المعتدلين يسمع منهم ولا يرد عليهم إلا قليلا وكنت تراه في مجالس المتطرفين ، يسمع منهم ولا يجاريهم إلا بمقدار ، وكنت تراه في كل حفل يقيمه المعتدلون وفي كل حفل يقيمه المتطرفون يشهد الحفلين جميعا لأن له الأصدقاء والإخلاء بين أولئك وهؤلاء . ولكنه كان ماهرا أشد المهارة في الاستخفاء حين الجد وحين تبدى الخطوب عن نواجذها لأولئك وهؤلاء . هنالك يلتبس القوم صاحبنا فلا يجدونه ولا يقفون له على أثر . وهنالك يسأل القوم عن صاحبنا أهل المعرفة فلا يحدثهم عن ثابت لاق كما يقول الشاعر القديم حتى إذا هذات العاصفة ، واستقرت الأمور في نصابها واطمأنت القلوب في الصدور ، نظر المعتدلون والمتطرفون فإذا صاحبنا يغدو بينهم ويروح كعهدهم به دائما مشرق الوجه باسم الثغر عذب اللفظ حلو الحديث .

وقد استطاع من الأمر ما لم يستطعه من المصريين إلا الأقلون عدداً . فأرضى المحافظين والمسرفين في المحافظة بنوع خاص ، وأرضى

المجدين والغلاة فى التجديد بنوع خاص . ثم جعلت الأحوال تحول
والأمور تتغير وتتابع المحن على مصر ، وكان الطليعى حين تمتحن
مصر فى آمالها وأمانيتها وفى حريتها الداخلية والخارجية أن يتطرف
المعتدل ويجدد المحافظ أن كان صادقا فى اعتداله ومحافظته لا يثائر
فيهما بالمنفعة ولا يتقى بهما الخوف .

ولكن صاحبنا لم يتطرف وقد تطرف المعتدلون من حوله ، ولم يجدد
وقد جدد المحافظون من حوله ، وإنما ظل كعهده دائما مشرق الوجه
باسم الثغر خفيف الحركة عذب اللفظ حلو الحديث .

وربما أحس المحافظون المصريون على المحافظة منه ميلا إليهم ،
وحرصا على أن تتصل أسبابه بأسبابهم ، ولكن على شرط ألا تنقطع
أسباب المودة والأخاء بينه وبين المتطرفين ، من الحقائق المقررة أن
صلوات الود والأخاء يجب أن ترتفع عن اختلاف الراى فى السياسة
والنظم الاجتماعية . وقد تلقاه المحافظون حفيين به مستبشرين بقربه
منهم واتصاله بهم واغضى عنه المتطرفون لأنه صاحب وفاء يرتفع
بالصداقة عن أغراض السياسة وأمراضها . ثم أصبحت المحافظة فى
بعض الأوقات لونا من ألوان الحفاظ والغيرة على مصالح الوطن
وكرامته وأصبح من البدع المحبوب أن يتحدث الناس بأنهم محافظون
وأن يسرفوا فى النعى على المتطرفين فأظهر صاحبنا أنه محافظ يذكر
مجد الوطن ويحرص على تقاليدته وينكر الخروج على النظام المألوف
والسنة الموروثة ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يقصر فى ذات أصدقائه
المتطرفين وإنما جاملهم حين كانت تحسن المجاملة وواساهم حين
كانت تحسن المواساة ، وضمن بذلك رضاهم عنه وأعضاءهم عن غلوه
فى المحافظة ، وفى أثناء هذا كله مضت أموره على خير ما يجب .
شجعه المحافظون حين كان السلطان يصير إليهم ، واغضى عنه
المتطرفون حين كان السلطان يستقر فيهم ، وعرف عامة الناس
وخاصتهم أنه رجل لا يحب الأحزاب ولا يشارك فى سياستها ، وإن كان
محافظ الميل قديم الهوى معتدل السيرة والراى جميعها .

قلت لصاحبي أأستطيع أن تحدثني بما تريد إليه من هذه القصة التي لا تنتهي . قال صاحبي لا أريد إلا إلى شيء يسير جدا وهو أن الذين يريدون العافية وقضاء المأرب وتحقيق المصالح ، وتجنب الأذى في أنفسهم وأمالهم وأعمالهم يحسن أن يسيروا سيرة هذا الرجل البارع . قلت لصاحبي . ليس كل الناس يقدر على أن يكون شعبانا وليس من الخير أن تكثر في مصر الثعابين





حديث الأوز

وأنا أعتذر إلى القراء من هذا العنوان الظريف
الطريف الذي لم أكن أحب أن اصطنعه على مافيه
من طرافة وظرف لانه أشبه بأحاديث الفكاهة
والمزاح ، لا بأحاديث الجد المر الذي يجب أن
نحرص عليه حين نأخذ في شئون التعليم .
ولكن صديقا أدبيا من أصدقائنا الأدباء أراد أن
يتحدث عن نشر التعليم فضرب الأوز له مثلا ، يذهب في ذلك مذهب
الفكاهة الساخرة ، وإن كانت شئون التعليم في هذه الأيام لا تحتمل
فكاهة ولا سمر .

تحدث الصديق الأديب أن صاحبه جحا زعم لقاضى المدينة انه
يستطيع ان يأتى بتسع عشرة أوزة فيحبسهن فى حجرة من الحجرات ،
ثم يدخل عليهن عشرين رجلا فلا يخرج واحد من هؤلاء الرجال إلا معه
واحدة من هؤلاء الأوز ، وقد أنكر القاضى هذا الحديث لما بين هذين
العديدين من الاختلاف . ولكن جحا ألح فيه وأصر عليه ، فاضطر
القاضى إلى أن يستجيب له . وأقبل جحا بأوزة التسع عشرة وأدخل
القاضى عليهن عشرين رجلا كان بينهم صراع وقراع سالت له الدماء
وشاھت له الوجوه ، ثم جعل الرجال يخرجون رجلا فى أثر رجل ومع كل
واحد منهم أوزته حتى خرج آخرهم ، وليس له شيء ، فلما سأل
القاضى جحا عن معجزته ، أنبأه بأنه لم يرد إلا عبثا ليبين له وللناس
أن الديمقراطية الصحيحة لا تحدث المعجزات ، ولا تخلق
المستحيلات .

والمغزى الذى قصد إليه الصديق الأديب هو أن الذين يريدون أن ينشروا التعليم بغير حساب ، وأن يحشروا الأعداد الضخمة فى الأماكن الضيقة ، انما يذهبون مذهب جحا حين أراد ان يقسم التسع عشرة أوزة قسمة سواء على عشرين رجلا فلم يبلغ من ذلك ما أراد . والمثل كما ترى رائع ، بارع وقاصم ، فاصم لاتقوم له حجة ولا يثبت له دليل ، فليست الديمقراطية إذن كلاما يقال ولا هى دعوة ننشر وتذاع وإنما هى أعمال يقدم عليها أصحابها عن بصيرة ويحققونها عن روية . وليس يكفي أن يقال للناس كلوا لياكلو ويأمنوا شر الجوع وليس يكفي أن يقال للناس تعلموا ليتعلموا ويأمنوا شر الجهل ، وإنما ينبغى أن يهيا الطعام على قدر الطاعمين وأن يهيا العلم على قدر المتعلمين فإن لم نفعل كانت دعوتنا إلى الطعام والعلم أشبه بعبث جحا حين أراد أن يقسم تسع عشرة أوزة على عشرين رجلا قسمة سواء .

ومن قبل الصديق الأديب ضربت للتعليم امثال أخرى تتصل بالطعام فقال قائلون أن الذين ينشرون العلم بغير حساب ويحشرون الأعداد الضخمة فى الأماكن الضيقة كالذين يلقون الطعام القليل إلى الجماعة الكثيرة ، فما هى إلا أن يلقي هذا الطعام حتى يكون الزحام والخصام والاصطدام ثم يفترق الناس وقد أذى بعضهم بعضا ولم يظفر بالطعام منهم إلا قليل .

والغريب أن يقال مثل هذا الكلام فى هذه الأيام التى تواجه الحكومات مشكلة التموين ومعضلة الطعام القليل يلقي إلى الجماعات الضخمة من الناس .. ولا يفكر الذين يقولون هذا الكلام ويكتبونه فى أن حوادث حياتهم اليومية تنقضى ما يقولون نقضا . فإن الحكومة انما قامت لتجرى الأمور بين الناس بالقسط ، وتقضى بينهم بالحق وتمكن كل واحد منهم من أن يأخذ نصيبه الضئيل من الطعام القليل لايغدو فى ذلك بعضهم على بعض ولا يظلم القوى منهم فى ذلك الضعيف ، وليس المهم أن تنجح الحكومة فى ذلك أو تفشل وإن تعدل الحكومة فى ذلك أو تجور ، وإنما المهم انها انشئت لتجرى أمور الناس بينهم بالقسط ولتطعم عشرين رجلا من تسع عشرة أوزة ، والخطا الذى انحرف فيه

جحا عن الصواب ولم يكن للقاضي أن يجاريه فيه هو انه اراد ان يقسم التسع عشرة اوزة على العشرين قسمة سواء ، ولو انه اصلح الاوز وهياء للطعام لجاز أن يغذى بهن مائة أو مئات من الناس دون أن يقع بين هؤلاء الناس صراع أو قراع ، ولكن جحا لم يكن مصرياً ولا عربياً ، وربما كان له حظ من دعاية ، ولكنها دعاية غير عاقلة . ولو قد كان جحا مصرياً عربياً لعرف أن في مصرامة تمتاز بخصلتين احدهما القناعة والرضى بالقليل ، والاخرى الإيمان بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات .

وليس كل مصري حريصاً على أن يأخذ اوزة صحيحة حية يفرح بها في بيته وينظر إليها تذهب وتجيء تبسط جناحيها وتقبضهما وترسل في الهواء صوتها الذي يطرد الملائكة ويدعو الشياطين كما يقول أهل الريف . ليس كل مصري حريصاً على أن يظفر بين حين وحين بجزء اوزة عظيم أو ضئيل بل ليس كل مصري حريصاً على أن يذوق طعم الاوز أو يشم ريحه ، وإنما المصريون قوم قانعون أكثرهم يرى الاوز ويسمع عنه ، ولكنه لا يبلو طعمه ولا يعرف له مذاقاً .

وهو على ذلك لا ينكر الحياة ولا يضيق بها ولا يسخط عليها فإن اتيج له قليل من لحم الاوز أو من مرقة أو من ريحه حمد الله وأثنى عليه ، وشكر له هذه النعمة التي لم يكن ينتظرها ولا يرجوها . وقد اراد الله بالمصريين خيراً فلم يجعل العلم اوزاً ، ولم يجعل الاوز علماً ، وإنما جعل العلم شيئاً كهذا الهواء الذي يمتلىء به الجو ويستطيع الناس جميعاً أن يتنفسوا ، وجعل العلم شيئاً كهذا الماء الذي يفيض به النيل ويستطيع الناس جميعاً أن يشربوه ، وقد يكون الهواء نقياً وقد تذكره رمال الصحراء ، فالناس يتنفسونه على كل حال . وقد يكون الماء صفواً وقد تشوبه الجراثيم فالناس يشربونه على كل حال . وقد يكون الطعام كثيراً وقد يكون قليلاً وقد يكون صالحاً وقد يكون رديئاً ، فالناس ياكلونه على كل حال لأنهم لا يريدون أن يموتوا مختنقين ولا أن يموتوا ظامئين ولا أن يموتوا جائعين ، وقد تكون المدرسة واسعة وقد تكون ضيقة ، وقد يكون الاستاذ ممتازاً وقد

يكون معتدل الحظ من الامتياز ، وقد يكون الكتاب ميسرا وقد يكون معسرا ، ولكن الناس يتعلمون على كل حال لأنهم لا يريدون أن يعيشوا جاهلين ، ومكان وزارة المعارف في مصر كمكان وزارة التموين . فما رأى جحا التركي أن قيل له أن في مصر طعاما يكفي لتغذية نصف المصريين وأن نصفهم الآخر يموت جوعا .

وما رأى جحا التركي أن قيل لوزارة التموين أن في مصر كساء يكفي لنصف المصريين فيجب أن يكتسى نصفهم وأن يظل نصفهم الآخر ضاحيا عاريا . وما رأى وزير التموين أن قيل له مثل هذا الكلام ؟ وما رأى البرلمان أن قال له وزير التموين مثل هذا الكلام . وأى النصفين من المصريين يستطيع أن يأكل وأن يكتسى فيعيش ، وأى النصفين من المصريين يحب أن يجوع ، وأن يعرى فيموت . أما جحا التركي فلن يرى بأسا في أن يأكل القادر على أن يشتري الطعام ، ويكتسى القادر على أن يشتري الثياب ويموت الذين لا يقدر على أن يشتروا طعاما ولا ثيابا . وليس على أحد من ذلك بأس فإله قد قسم الحظوظ بين الناس فجعل بعضهم غنيا يستطيع أن يشتري الغذاء والكساء ، وجعل بعضهم معدما لا يستطيع أن يجد غذاء ولا كساء . ولكن وزارة التموين لا تذهب لحسن الحظ هذا المذهب الأثم وإنما تفعل ما تستطيع ليجد الفقراء والأغنياء ما يقيم الأود ويستر الجسم وهي تغزو الأعداد الضخمة بالقليل من الطعام وتكسو الأعداد الضخمة بالقليل من الثياب توفق أحيانا ويخطئها التوفيق أحيانا أخرى والفرق بين جحا المصري وجحا التركي بسيط جدا فجحا المصري لا يفرق بين العلم والطعام وجحا التركي يرى أن من حق الناس أن يأكلوا ويشربوا ويعيشوا والا بأس عليهم من أن يجهلوا ويخضعوا لأفات الجهل فيمتاز بعضهم من بعض ويتفوق بعضهم بعضا ، ويصبح بعضهم لبعض عبيدا وتبعاء .

وقد نشأ المصريون على ألوان من العقائد يحدثهم بها جحا المصري مصباحا وممسيا . فهو يحدثهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اطعم الأعداد الضخمة من أصحابه حتى أشبعهم بالقليل الضئيل من

الطعام الذى لم يكن يكفى إلا لتغذية الرجلين أو الثلاثة ، وهو يحدثهم بان الله قد أنزل على عيسى مائدة من السماء كانت عيدا لأولهم وآخرهم ، وهو يحدثهم بان فى ألف ليلة وليلة أوزا لا كالأوز ، ودجاجا لا كالدجاج تؤكل الواحدة منها حتى لايبقى إلا عظمها ، قد جرد من كل ما كان عليه من اللحم ثم يجمع هذا العظم فى طبق من الأطباق ويقال له كلام فينتفض بقدره الله ويعود كهياته قبل ان يؤكل أوزا ودجاجا يستطيع ان يجد فيه الجائع شبعاً ولذة . فمصدر هذا كله أن جحا المصرى يؤمن بالبركة من جهة ويؤمن بالعدل من جهة أخرى ، ويرى من أجل ذلك أن القليل يجب أن يكفى الكثير وأن الناس كلهم لآدم وأن آدم من تراب وانهم جميعاً من أجل ذلك سواء فى الحقوق والواجبات يجب أن ياكلوا ويشربوا ويتنفسوا ويتعلموا لايمتاز بعضهم من بعض إلا بالتقوى والأعمال الصالحات التى هى خير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً .

فأنت ترى فرقاً بين التعليم الذى يعلمه جحا المصرى للمصريين والتعليم الذى يلقيه إليهم جحا التركى من مدرسته تلك فى جمبولاد . وقد أراد الله ان يفهم المصريون لغة المصريين والا يفهم لغة التركى منهم إلا أفراد قليلون وهم من أجل ذلك لا يشبهون التعليم بأوز جحا التركى ، وانما يشبهونه بهذه المائدة التى أنزلها الله من السماء فكانت عيدا للناس أولهم وآخرهم وبهذا الطعام القليل الضئيل الذى أشبع منه النبى صلى الله عليه وسلم مئات من أصحابه ثم تركه كاملاً موفوراً ، وبهذا الأوز الذى تحدثت عنه ألف ليلة وليلة بأنه ينفد ليتجدد ، ويفنى ليبقى ويموت ليحيا .

وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم ووزرائهم وشيوخهم ونوابهم وقادة الراى فيهم أن يؤمنوا مثلهم بهذه الآيات ، والا يياسوا من روح الله فإنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون . وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الراى فيهم أن يعرضوا عن هذا الهزل إلى الجد ، وعن الباطل إلى الحق . وان يعلموا المصريون ما وجدوا إلى تعليمهم سبيلاً فى المدارس الواسعة وفى المدارس الضيقة وفى

الهواء الطلق على الكراسى الوثيرة وعلى الكراسى الخشنة وعلى
الحصر وعلى الأرض العراء ، لأنهم يرون الجهل حريقاً يلتهم النفوس
والقلوب ، ويجب أن يطقا مهما تكن الوسائل التى تتخذ لاطفائه .
وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الراى فيهم أن يقولوا
للدولة انفقى وانفقى عن سعة فإن لم تتج لك الميزانية ماتريدينه
فافرضى الضرائب فى غير تردد وفى غير مهل . وعلمى حتى لايبقى فى
مصر جاهل ولاغافل ولا معرض للاستغلال مهما يكن المستغل
والاستغلال مهما يكن المستغل ، والتسلط مهما يكن المتسلطون ، وانه
لمن المؤلم المؤذى حقا ان يحتاج المصريون إلى ان يقولوا هذا
للعلماء والأدباء وقادة الراى .

وقد مرت على المصريين أيام كانوا يساقون فيها إلى المدارس بقوة
السلطان ويدفعون اليها دفعا بالإكراه ويفرون بأبنائهم من التعليم .
فقد انعكست الآية وتغيرت الأيام واصبح الجاهلون يطلبون العلم
فيردهم عنه العلماء ، فإذا الحوا فى ذلك سبقت إليهم احاديث الأوز
وقصت عليهم قصص جحا وعبثه فى جمبولاد كلا ايها السادة ، يجب
أن يخلص العلماء للعلم واول مراتب الإخلاص له أن ينشروه بكل
وسيلة وان يذيعوه من كل سبيل والا يكونوا كهذا البخيل الذى يقول
فيه بشار :

وللبخيل على امواله علل زرق العيون عليها اوجه سود



عنه
٨١٤٧٧٧



قصة وة

فى مصر ظاهرة غريبة لست ادرى اتوجد فى
غيرها من البلاد ام لا توجد ؟ واكبر الظن انها
ظاهرة طبيعية فى البلاد التى لم يتم تطورها
بعد ، ولم تتحضر قلوب فريق من ابنائها تحضرا
صحيحا ، وإنما اتخذت من الحضارة غشاء رقيقا
يخفى وراءه جاهلية جهلاء ، وقسوة قاسية
منكرة ، وهذه الظاهرة هى قسوة الذين لهم باللين عهد حديث ، وغلظة
الذين ادركتهم النعمة بعد ان ذاقوا الم الشقاء وبلوا مرارة البؤس
والحرمان ينشأ ادهم . كما تنشأ الكثرة الضخمة من الشعب
المصرى فى أسرة شقية بائسة او فى أسرة متوسطة متواضعة ،
فيتكلف اهله ما يتكلفون من الجهد ويحتمل أبواه ما يحتملان من
المشقة والعناء ليرفعاه إلى حال خير من حالهما ولينزلاه منزلة أرقى من
منزلتهما وفيه هو ما فى الكثرة الضخمة من الشعب المصرى من هذا
الذكاء الحاد والعقل الخصب والطموح الى الخير والقدرة على الجد ،
فما يزال الابوان يكدحان ويشقيان وما يزال هو يكد ويجد ، وما يزال
التعاون بين كدح الأسرة وجد الفتى الناشئ يؤتى ثمره قليلا قليلا ،
حتى يبلغ الفتى بعض ما أرادت له الأسرة أو كل ما أرادت له الأسرة
وبعض ما أراد لنفسه أو كل ما أراد لنفسه ، وإن كانت حاجة من عاش
لا تنقضى كما يقول الشاعر القديم . وإذا صاحبنا فتى موفق موفور قد
بلغ من لين الحياة وخفض العيش ما لم تبلغ أسرته ، فعلم وكانت
أسرته جاهلة ونعم وكانت أسرته بائسة ، وابتمسم وكانت أسرته
عابسة ، واستقبل الحياة فى رجاء كثير وأمل واسع ، فجعل لايرقى إلى
درجة إلا طمع فى أن يرقى إلى درجة اعلى منها وجعل لا يظفر بخير
إلا حرص على أن يبلغ خيرا أكثر منه ، وأصبحت الحياة بالقياس إليه
ميدان سباق الى التفوق لاميدان جهاد لكسب القوت .

هناك يتذكر لماضيهِ القريب وينسى تلك الدموع التي سكبته
الأمهات في كثير من مواطن البؤس والشقاء ، وذلك العرق الذي سكبهُ
في كثير من مواطن الجد والعمل ، وتلك المواقف الحرجة التي وقفتها
الأسرة في كثير من مواطن الأزمة والضيق ، والتي كانت تردّه عن
المدرسة لأن الأسرة لم تكن تملك المصروفات وكادت تضطره الى الجهل
والخمول لأن الأسرة لم تكن تجد ما تنفق على نفسها فضلا عن أن تجد
ما تنفق عليه . ولكن الأم نزلت عن آخر ما بقى لها من الحلى
أو استغنت عن بعض ما في بيتها من المتاع ، ولكن الأب ضاعف الجهد
ووصل الليل بالنهار في العمل وأراق ماء وجهه عند فلان أو فلان
يقترض منه مقدارا ضئيلا أو ضخما من المال ، واستطاعت الأسرة
بفضل هذا الشقاء المتصل والعذاب الأليم أن تحل الأزمة وتخرج من
الحرج ، وتؤدي المصروفات وتقوم له بما يحتاج إليه ليمضى في
درسه وادعا مطمئنا ناعم العين رضى البال . ولعل الأسرة لم تتعرض
لهذا الحرج مرة واحدة ولا مرتين ، وإنما تعرضت له مرات ومرات حتى
اتم الفتى درسه وبلغ ما أرادت له الأسرة وما أرادهُ هو لنفسه .
ينسى هذا كله نسيانا يسيرا سهلا . ينساه بالقياس إلى نفسه
فيحسب انه قد نشأ في النعمة والرخاء ، وأن ليس له بالضنك والضيق
عهد . وينساه بالقياس إلى أسرته فيحسب انها لم تقدم إليه شيئا ، لم
تشق ليسعد ، ولم تكد ليستريح بالنعيم . ثم هو ينساه بالقياس إلى
الجيل الناشئ فلا يفكر في أن بين هؤلاء الأطفال والصبية الذين
يبسمون فتبتسم الحياة ، والذين يمرحون فيشيع من حولهم الرضى
والغبطة ، مئات ومئات إنما يشقون ابتساماتهم هذه الحلوة من عبوس
الآباء والأمهات ، وإنما يشقون ضحكهم هذا المرح من حزن الآباء
والأمهات كما كان هو يشق ابتسامه ومرحه من عبوس أبويه وحزنهما
في العهد القديم .

ينسى هذا كله نسيانا ويجعله جهلا وتمحوه الحياة من قبله محوا
قاسيا . فإذا هو يرى الناس كلهم ناعمين كما ينعم ، راضين كما
يرضى ، قادرين على الانفاق كما هو يقدر على الانفاق ، ليس عليهم

إلا أن يريدوا ليظفروا ، وليس عليهم إلا أن يضعوا أيديهم في جيوبهم ليجدوا ما يحتاج إليه أبناؤهم من هذه النفقات التي تزداد كلما تقدمت الأيام . يرى نفسه موفورا فيحسب الناس كلهم موفورين ويجد نفسه سعيدا فيحسب الناس كلهم سعداء . وهو من هنا قاس أشد القسوة ، عنيف أشد العنف ، ينظر إلى الرحمة على أنها خور في الطبيعة كما كان يراها وزير عربى قديم وينظر إلى العدل على أنه قوة فى يد الدولة ترفع بها من تشاء إلى حيث تشاء وتخفض بها من تشاء إلى حيث تشاء .

ثم ينظر إلى الحياة على أنها جهاد لا ينال خيرها إلا بالكد والجهد والعناء كما يتصور هو الكد والجهد والعناء . وهو على ذلك صورة عابسة لدولة عابسة لاشر فيها ولا رضى ، ولا رفق فيها ولا ابتسام ، إنما هي القسوة المنكرة والعنف المسلط على الرعوس والنفوس وعلى كل شيء من حوله حتى تستحيل الحياة جحيما أو شيئا يشبه الجحيم .

وأنت تستطيع أن تنظر فى حياتنا العامة على اختلاف فروعها فسترى كبارا يقسون على صغار لأنهم نسوا أنفسهم أو قل نسوا ماضيهم ، ولم يذكروا أنهم كانوا صغارا وأنهم شقوا بهذه القسوة من كبار الجيل الماضى ، وأن الحق عليهم لأنفسهم وللناس أن يمحووا هذا الشقاء ويجنبوا الجيل الناشئ ما شقى به الجيل الماضى ، لا أن يثأروا لأنفسهم من الأبرياء ، فكثير من هؤلاء الكبار القساة إنما يصطنعون القسوة متأثرين بشعور عميق خفى هو شعور الحاجة إلى التشفى والانتقام لكثرة مذاقوا من الشدة والجهد حين كانوا صغارا . وشر من هؤلاء قوم قست عليهم الحياة ورفقت بهم الدولة فأعانت أسرهم على تربيتهم وتعليمهم ومكنتهم من أن يتموا الدرس على أحسن وجه ، وينقلبوا فى المناصب حتى تصير إليهم الأمور ، وإذا هم ينسون فى وقت واحد قسوة الحياة عليهم فيقسون على الناس ، ورفق الدولة بهم فلا يرفقون بأحد . أخذوا لأنفسهم ما استطاعوا من لين الحياة . وهم يأخذون لأنفسهم وسيأخذون لأنفسهم ما يستطيعون من لين الحياة ، ولكنهم لا يعطون شيئا ، لا من ذات أيديهم ولا مما فى يد

الدولة لأنهم انما نعموا بالحياة ويتعمون بها من حيث انهم ممتازون قد اشتقوا من عناصر ممتازة ، وهم ليسوا كغيرهم من الناس ولا ينبغي أن يشبه بهم الناس من قريب أو بعيد . وصدق الله العظيم في قوله الكريم ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

كل هذه الخواطر الحزينة الشاحبة التي تملأ النفس بؤسا وحزنا ومرارة ، وإنما تخطر لى في هذه الأيام حين تنتهى أجازة الصيف ويستقبل الناس العام الدراسى الجديد . من شأن هذه الأيام أن تكون أيام ابتهاج حلو واكتئاب هادىء لامرارة فيه . من شأنها أن تكون أيام ابتهاج لأن الأطفال والصبية والفتيان يستقبلون عامهم الدراسى الجديد الذى سيملاء النشاط الخصب فتتمو عقولهم وأخلاقهم واجسامهم . ويخطون إلى الرجولة خطوات مباركة ترقبها الأسر سعيدة مبهجة .

ومن شأن هذه الأيام أن تكون أيام اكتئاب هادىء لامرارة فيه لأن الأطفال والصبية والفتيان سيفارقون الأسر الى حيث معاهدهم العلمية فتحزن الأسر شيئا ولكنه حزن باسم أن صح أن يبتسم الحزن ، ويحزن التلاميذ والطلاب شيئا ، ولكنه حزن قصير رقيق لا يلبث أن تمحوه حياة الدرس ، ولكن هذه الأيام عندنا ليست أيام ابتهاج باسم واكتئاب هادىء ، وإنما هى أيام الحزن الممض - والشقاء الملح والعذاب الأليم والصراع بين القدرة والعجز وبين الأمل والياس وبين القوة والضعف ، وهى الأيام التى يجب أن يشقى فيها الآباء والأمهات ليجدوا لابنائهم مايفقون وليؤدوا عنهم أجور التعليم . وأجور التعليم فى مصر ليست سهلة ولا يسيرة ، وإنما هى أجور ثقيلة عسيرة قد فرضت على أساس أن الأمة غنية أو أن التعليم حق للاغنياء دون غيرهم من الناس . وأين يجد الآباء ما يحتاج إليه أبناؤهم من نفقة يعيشون بها فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الأقاليم : وأين يجد أوباء ما يؤدون إلى وزارة المعارف أو الى الجامعة ليتعلم ابناؤهم . يجب إذن أن تنزل

الامهات عما بقى لهن من حلى وعن بعض مافى بيوتهن من متاع ،
ويجب ان يريق الآباء بعض مافى وجوههم من ماء ليقترضوا من هنا
وهناك ما يعينهم على تعليم أبنائهم .

ما أروع نظامنا الاجتماعى فى تقدير الحياة ومن حقها ان تصفو ،
وفى تنغيص العيش ومن حقه ان يكون حلوا رقيقا .

ان الطالب الأوربى ينفق أكثر ايام الطلب لا يكلف اهله شيئا من
نفقات التعليم لأن الدولة تعلمه بلا اجر ، فإذا اتم تعليمه الثانوى
واراد الاتصال بالجامعة فهو فى بعض البلاد لا يكلف اهله شيئا لأن
الدولة تعلمه فى الجامعة بغير اجر ، وهو فى بعض البلاد الأخرى
لا يكلف اهله شيئا يذكر لأن الجامعة تأخذ منه اجرا صوريا . فليعلم
المصريون ان مصروفات التعليم فى كليات الآداب والعلوم فى فرنسا
مثلا لا تزيد على سبعين قرشا مصريا فى العام أى انها لا تبلغ ما يدفعه
الطلاب عندنا رسما للمكتبة والاتحاد . فاما مصروفات التعليم عندنا
فيعرفها الآباء الذين يسعون ويعرفها الأمهات اللائى ينزلن عما لهن من
حلى أو عن بعض مافى بيوتهن من متاع . ويعرفها رجال وزارة المعارف
ورجال الجامعتين الذين تعلمت كثرتهم الكثيرة على حساب الدولة
بالمجانىة فى مصر وفى أوربا لأن الدولة كانت محتاجة الى المتعلمين
ثم هم الآن يقاومون المجانىة ما وجدوا الى مقاومتها سبيلا ويحتاجون
فى التخلص منها ، يسلكون الى ذلك الطرق الملتوية اذا لم يستطيعوا
ان يسلكوا اليها الطرق المستقيمة . يرفعون نفقات الطعام والكتاب
ويحسبون انهم يحتفظون بالمجانىة ويحكم أيها الناس ، ومن أين لغير
الأغنياء باثمان الطعام والكتاب التى تطلبونها . لا تنظروا الى انفسكم
الآن ولكن انظروا الى انفسكم حين كنتم صبية واطفالا وفتيانا
واذكروا كيف كانت أسركم تشقى بدفع المصروفات ، وكيف كانت أسركم
تسعد ان اتاحت لكم المجانىة ، واجتهدوا فى أن تجنبوا أسر هذا
الجيل ما احتملت أسركم من شقاء ، واجتهدوا فى أن تتيحوا لاسر هذا
الجيل ما اتيح لاسركم من السعادة حين ظفرتم بالمجانىة . واحذروا ان

تكونوا من الذين قال الله فيهم : «ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون » .
اللهم أشهد أنى ما ذهبت قط الى الجامعة أو الى وزارة المعارف الا كانت هذه القصة ملء قلبى ، والا ذكرت أنى كنت سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة ، فمن الحق على أن اتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد ممكن من شباب مصر ولو أستطعت لأتحثها لهم جميعا .
ومن يدرى فما لم نستطعه أمس قد نستطيعه غدا ولا بد من أن يبلغ الكتاب أجله ولا بد لمصر من أن تظفر بحقها من العدل فى يوم من الأيام .





لو رأيته قبل عشرين سنة ياسيدتى لما أنكرت
منظره هذا الغريب ، حين رأيته يقبل متدحرجا
كانه البرمة الهائلة ، لم ترتفع فى الجو كثيرا
ولكنها اتسعت عن يمين وشمال وامتدت من خلف
وامام وهى تسعى مع ذلك خفيفة لا تكاد الأرض
تحس لها ثقلا لأنها اتخذت من لحم وعظم ، ولم
تتخذ من حجر وصخر لو رأيته قبل عشرين سنة ياسيدتى لما أنكرت
منظره هذا الغريب حين اقبل فحيا ثم تقدم يسعى حتى اذا بلغ مكانه
جلس وكأنه الكتيب المنهال فكان الناظر اليه يسأل نفسه لاول وهلة
أيرى أنسانا جالسا أم يرى كومة من الرمل ، قد أستخفى فيها شخص
ضئيل لا يكاد يظهر منه الا تقاطيع وجهه ضئيلة غائرة خليقة الا ترى .
لولا هذا الصوت الذى يخرج منها ضئيلا نحिला ، ولولا هذا الشر الذى
يتطاير من عينين صغيرتين لا تفتح عنهما الجفون الا فى بطء بطيء
وثقل ثقيل كأنما تشد بخيط قد ركب فى قفاه ، وقام شخص من ورائه
يجذبه متكلفا بين حين وحين فلم تكن هذه حاله قبل ٢٠ سنة وإنما كان
فتى نحيفا ضعيفا ونحिला ضئيلا رشيق الحركة كثير الاضطراب لا
يعرف السعى الهادى ولا المشى المطمئن ، وإنما كان يجرى على
الأرض أو كان يجرى فوق الأرض ، كأنه شىء من هذه الحيوانات
الصغيرة الخفيفة التى ملئت نشاطا وقوة وحياة والتى تريد ان تطير
فى الجو لولا أن الله لم يرزقها جناحين .

ولم تكن هذه حاله اذا أنتقل من حيز الى حيز فحسب . وإنما كانت
هذه حاله أيضا اذا أستقر فى مكان وأقبل على عمل من الاعمال . فقد
كان متحركا دائما مضطربا دائما ، لا تكاد العين تلحظه الا رأت شيئا من
شخصه يتحرك ، فوجهه ملتفت مرة الى يمين ومرة الى شمال . ورأسه

يرتفع حيناً أو ينخفض حيناً آخر ويداه تذهبان وتجيئان ، ورجلاه تداعبان الأرض مداعبة متصلة ، ولسانه لا يكاد يستقر في فمه وإنما هو متحرك دائماً ببعض القول ، ولم يكن شخصه المعنوى أقل حركة واضطراباً من شخصه المادى ، فقد كان عقله مفكراً دائماً ، وكان قلبه متوثباً دائماً ، وكان انطلاق لسانه فى فمه مصوراً دائماً لهذا العقل الذى لا ينى فى التفكير ، ولهذا القلب الذى لا يغتر عن الشعور وكان على هذا كله ولهذا كله ، ومع هذا كله لا أدري ، متوقد الذهن حاد الذكاء لا تعرض له مسألة من المسائل الا سبق اثرابه الى تعمقها والنفوذ الى دقائقها واستخراج ما كان يمكن ان يستخرج منها ، وكان على ذلك او لذلك او مع ذلك لا أدري ، مأكراً شديد المكر عابثاً غالباً ، فى العبث ، حتى احبه اثرابه اشد الحب وخافوه اعظم الخوف ، احبوه لذكائه وخفته وخافوه لتفوقه ولحيلته هذه الواسعة وعبته هذا المتصل ودعابته هذه التى لا تنقضى وكانوا يسمونه فيما بينهم الثعلب ، وربما بهرهم مكره وتعاطمتهم حيلته الواسعة فسموه الثعلبان . يرون فى هذه الصيغة خطأ او صواباً مبالغة فيما يريدون ان يخلعوا عليه من صفات الثعلب من الخفة والرشاقة ومن المكر والدهاء ولم يكن اثرابه من التلاميذ وحدهم هم الذين يعجبون به ويعجبون منه وإنما كان اساتذته كذلك يكبرون ذكاءه ويقدرّون نشاطه ويرضون عن جده فى الدرس واجتهاده فى التحصيل واسراعه الى الاجابة كلما القى سؤال وتفوقه فى الامتحان مهما يكن عسيرا وهم من اجل ذلك كانوا يرعونه ويتعهدونه بالسؤال عنه والتشجيع له والتتبع لتقدمه فى الدرس حتى كأنه كان ابناً لكل واحد منهم . وكان اعجاب رفاقه به ورعاية اساتذته له يشعرانه الرضى عن نفسه والثقة بها ، ويملآن قلبه أملاً حلوا فى مستقبل باسم سعيد . وكان مع ذلك من أسرة متواضعة اشد التواضع ، ضيقة الحال اشد الضيق ، تجد الجهد كل الجهد . فى كسب القوت فضلاً عما تحتاج اليه من مرافق الحياة . وكان الصبى يرى ذلك ويشقى بآثاره ولكنه لم يكن يحفل به كثيراً لانه كان راضياً عن نفسه وانقالها . مطمئناً الى أملة الباسم الحلو ومستقبله الرضى

السعيد . وقد أتم الدرس الابتدائي وهم أهله أن يصرفوه عن التعليم ليوجهوه الى بعض العمل لعله يعينهم على بعض ما يلقونه من اليأس ويشقون به من الضيق ولكن الصبي بكى وأغرق في البكاء حتى رقت له أمه ورثى له أبوه . وتكلفت الأسرة ما تكلفت فجاء الأب في الكسب وخرجت الأم عما بقي لها من حلية ، وتوسط بعض أساتذته في إعفائه من أجر التعليم فظفر بالمجانبة ، ومرق من التعليم الثانوى كما يعرق السهم من الرمية . لم تعرض له عقبة الاذلها ولا صعوبة الاقهرها ، لم يعرف الرسوب في الامتحان ، ولم يعرف التخلف عن الاقران ، وإنما كان السابق المتفوق دائما حتى اذا انقضت تلك الاعوام الثلاثة التى كان التلاميذ ينفقونها فى التعليم الثانوى كان الفتى قد جمع شهادتين من شهادات الحكومة كما كان أبوه يقول لأمه اذا خلا إليها . وكما كانت أمه تقول لصاحباتها اذا تحدثت اليهن ..

وكان أبوه حريصا أشد الحرص على أن يضاعف الجد والكد ، وكانت أمه شديدة الحرص على أن تلتبس عملا كريما فى أسرة كريمة ، ليستطيع الفتى أن يمضى فى درسه حتى يظفر بالشهادة الثالثة . وإنما هى أعوام تنفق فى هذه المدرسة أو تلك المدارس العليا ليصبح الفتى رجلا متفوقا ممتازا يستطيع أن يطمح الى مناصب المتفوقين الممتازين بين رجال الدولة الذين يحلون ويعقدون وينقضون ويبرمون . ولكن لله فى خلقه حكمة بالغة لا يعرف كنهها ولا تدرك أسرارها ، فلم يكد يتقدم الصيف فى ذلك العام حتى اعتل أبو الفتى إياما ، ثم تقطعت به أسباب الحياة وأسباب الأمل جميعا ففارق هذه الدار ولم ينعم بما كان يتمنى به من ظفر ابنه بالشهادة الثالثة واشتغاله بخدمة الحكومة فى منصب من هذه المناصب الممتازة التى لا يظفر بها الا المتفوقون الممتازون . ولم ير الفتى بدا من أن يتلمس العمل ليحيا ولتحيا أمه ، وفى الشهادة الثانوية مقنع للشباب الذى يريد عملا متوسطا بل فى الشهادة الابتدائية . مقنع فى ذلك الوقت للصبي الذى يريد عملا متواضعا ، وما هى الا ان يسعى الفتى ، ويعينه بعض أساتذته فى هذا السعى ، واذا هو يظفر بمنصب متوسط فى بعض الدواوين ، وقد ضمن لأمه

ولنفسه الغذاء والكساء كما يقال فى هذه الأيام ، ولكن الفتى حاول
يحسن مقارعة الدهر لا يسد عليه مسلك من مسالك الحياة الا فتح له
مسلك آخر من مسالكها كما يقول الشاعر القديم . والتعليم فى ذلك
الوقت ميسر أكثر مما هو فى هذه الأيام لقلة المتعلمين وشدة الحاجة
اليهم . فما يمنع صاحبنا أن يختلف الى الديوان وجه النهار والى
مدرسة المعلمين آخره . وقد فعل . وما هى الا أعوام حتى يبشر أمه
انه قد نال الشهادة الثالثة . وإذا عمله يتغير وأجره يرتفع وإذا هو
لايقنع لأمه ونفسه بالغذاء والكساء وإنما يضيف اليهما شيئاً من
طيبات الحياة ، وقد جعل رضى الفتى عن نفسه يشتد ، وجعلت ثقة
الفتى بنفسه تزداد ، وجعل الأمل يهدى اليه ابتسامات فيها شيء من
سعة ، وجعل المستقبل يدعوه بإشارت فيها شيء من الحاح . وقد سال
الفتى نفسه ما الذى يتمتع من أن يختلف الى عمله وجه النهار والى
مدرسة الحقوق آخره ، وما الذى يرغبه عن ذلك وليس له أرب فى هذه
الحياة القارغة التى يحيها أترابه من الشبان اذا تقدم النهار . وقد
فعل . وما هى الا أعوام حتى يقبل الفتى سعيداً محبوباً فينبىء أمه
بأنه قد ظفر بالشهادة الرابعة . والشيخة راضية لأن ابنها يرقى
ويرقى ، ويكسد الشهادات لنفسه تكديساً ، والشيخة محزونة لأن
زوجها لا يشاركها فى هذا الرضى ولا يشاطرها هذا النعيم . والفتى
مقبل على أيامه ينتهبها انتهاباً وقد زاد رضاه عن نفسه وثقته بها . وقد
زاد ابتسام الأمل له سعة واشتد دعاء المستقبل عليه الحاحاً ، وهو
يسال نفسه لم لا يظفر بشهادة خامسة . وبشر أمه ذات يوم بأنه قد ظفر
بهذه الشهادة الخامسة ولكنه أنبأها فى الوقت نفسه بنبا مزق قلبها
تمزيقاً وأجرى دموعها على خديها غزيراً . فقد عرفت له الدولة نبوغه
وقدرت تفوقه ، ورات أن الشهادة السادسة يجب أن تضاف الى
الشهادات الخمس وأن هذه الشهادة السادسة لا تطلب فى مصر ، وإنما
هى بعيدة ، بعيدة ، يعبر لها البحر ، وتطلب من بلاد الانجليز . ولم
يكن الفتى أقل من الدولة اعترافاً بنبوغه ولا أقراراً بحقه فى الظفر
بالشهادة السادسة ، والعلم يطلب ولو فى الصين ، والشهادات تطلب

ولو في بلاد الانجليز . ولا يتقدم الصيف حتى يكون الثعلب قد هيا نفسه للرحلة البعيدة ، والغياب الطويل وقد غاب ما غاب ، ثم أب ومعه الشهادة السادسة والشهادة السابعة واذا هو رجل مرموق مرموق ، لا يذكر الا اكبره ذاكره ، ولا يرى إلا اشير اليه بالبنان . هذا فلان اترى الى فلان ، انه ذو الشهادات السبع وقد اكبرته الدولة ، وعرفت له حقه وحق شهادته هذه الكثيرة التي يمكن ان تبسط على جدار من جدران مكتبه فتكسوه كله بهذا الورق الجميل يملأه الثناء الجميل . وقد رضى الفتى عن نفسه كل الرضى ، ووثق بها كل الثقة ، ولكنه زهد في الشهادات كل الزهد وأدركه شيء يشبه التخمة ، فاتجه نشاطه اتجاها آخر ملائما كل الملاءمة لطبيعة الحياة المصرية في ذلك الوقت .

فقد كانت الثورة المصرية قد غيرت أشياء كثيرة من أمور الناس ، ومن أمور الحكم ، ومن أمور المستقبل الذى يطمع فيه الشباب . نشأ نظام الاحزاب ونشأ الصراع بين هذه الاحزاب .

ونشأت الفرص الكثيرة التى ينتهزها الاذكيا ليستفيدوا من صراع الاحزاب . ونظر الثعلب ذات يوم فاذا الحياة المصرية كلها تلقى فى نفسه انه قد خلق للفوز وان الفوز قد خلق له ، لان الحياة المصرية لم تكن فى وقت من الاوقات ملائمة لخفة الثعالب ورشاققتها وذكاؤها ونهمها منها فى هذه الأيام . وما ينبغى لمن يريد الفوز فى هذه العواصف العاصفة وفى هذه المصالح المشتبكة والخصومات المتصلة والمنافع المعقدة الا ان يكون فطنا ، وصاحبنا شديد الفطنة ، لبقا ، وصاحبنا عظيم الحظ من اللباقة ، خفيفا ، وصاحبنا أخف من النسيم ، ماكرا ، وصاحبنا امكر من المرأة صامتا ، وصاحبنا أشد صموتا من الصخرة الصماء . وقد ينبغى ان يضيف المرء الى هذه الخصال ليبلغ ما يجب من الفوز ، خصلة أخرى تشتق من هذه الخصال جميعا ، فيتلطف حتى يشعر الاحزاب جميعا بانها جميعا محتاجة اليه ، وحتى يشعر المرافق العامة جميعا بانها كلها تستطيع ان تنتفع به ، وحتى يشعر الساسة جميعا بأنه رجل فن لا رجل سياسة . وقد استطاع صاحبنا أن يبلغ من هذه الخصال كلها ما أراد .

فقد كان ثعلبا فى المدرسة الابتدائية وكان ثعلبا فى المدرسة الثانوية وكان ثعلبا فى الدواوين التى اختلف اليها وجه النهار وفى المدارس التى اختلف اليها آخره . وكان ثعلبا فى بلاد الانجليز وعاد منها اشد اغراقا فى خصال الثعلب . ومكنته شهاداته السبع من ان يتثعلب فى فروع مختلفة من فروع العلم والمعرفة . واذا الاحزاب كلها عنه راضية وبه معجبة واليه محتاجة ولكنه فقد من خصال الثعلب خصلة واحدة هى التى حملتك ياسيدتى على ان تضحكى منه حين رايته يقبل كأنه البرمة الضخمة وحين رايته يجلس فينهال كما ينهال الكتيب .

ذلك ان الايام احبته حبا شديدا ، فاخذت لا يمر به يوم منها الا خلع عليه قميصا من الشحم قد فصل على قدمه تفصيلا وجعلت هذه الثياب الشحمية تتراكم وتتراكب حتى مدته الى يمين والى شمال ، وزادته بسطة فى الجسم من خلف ومن أمام ، وجعلته كما ترين جبلا يتحرك فى خفة ويعمل فى ذكاء .

قالت السيدة وكانت أدبية أريفة ، أرجو أن لا يكون ثعلبك هذا الغليظ من ثعالب المتنبي التى يقول فيها :
نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمنا وما تفنى العناقيد





شباطين البيان

صدقنى ياسيدى أو لاتصدقنى لن يغنى هذا عن الحق شيئاً ، والحق الواقع ، وهو أن هذه القصة ليست مخترعة ولامصطنعة وليس للخيال فيها أثر قليل أو كثير ، وإنما هى شىء وقع ، كما أن من الأشياء الواقعة أنى قد خرجت من دارى حين ارتفع الضحى فسعيت إليك متناقلاً استمتع بهذا الجو الرائق ، وبهذه الشمس الفاترة ، وبهذا النسيم البارد الرقاق ، وادير فى نفسى ماوقع لى من الأمر ، واستعرض بعض الصور التى اريد ان اصطنعها لأقصه عليك . واجيل فى نفسى أيضاً ما سيكون بينك وبينى من أخذ ورد مستنكرا على حديثى وساحاول اقناعك بأنه صحيح وسيشهد بينك وبينى خصام لا بد من أن يثور بيننا كلما حدثتك ببعض الأمر . لأنك رجل لا تؤمن إلا بما ترى وتحس . ولا تصدق من انباء الناس إلا قليلا .

ولست أخفى عليك أنى اعذرك ولا ألومك فقصتلى لا تخلو من غرابة ، وأية ذلك أنى انا نفسى انكرتها أشد الانكار وكنت واثقا كل الثقة بأنى رايتها فيما يرى النائم ، وكنت اتحدث إلى نفسى بأنها حلم غريب ، طريف ، وكنت التمس العلة لهذا الحلم وكنت اجدتها فى غير شقة ، وكنت استمتع بحلمى واستمتع بما بذلت فى تعليله من جهد واستمتع كذلك بما سأتحمل فى تأويله من عناء . ولكن رايتنى حين تقدم الليل وكاد ينهزم أمام النهار واقفا أمام دارى التمس المفتاح لاديره فيفتح لى الباب وانسل الى غرفتى فى هدوء وخفة حتى لا يحس أهلى عودتى فى آخر الليل ، فلا اجد المفتاح ، وقد تعودت ألا اخرج مع الليل إلا اخذت معى هذا المفتاح أوفر بذلك على أهلى حريتهم وراحتهم ونومهم ، واجنبهم بذلك ان يسهروا منتظرين عودتى أو أن يهبوا من نومهم حين اعود ليفتحوا لى الباب ولكن المقادير أرادت أمس أن تجرى الأمور على غير ما تعودت أن تجرى عليه فانسيت المفتاح وما انسانيه إلا الشيطان ، وسئرى أن هذا لم يكن غريباً ، فقد كانت المقادير قد

قدرت ان تكون ليلتى هذه من قسمة الشياطين . والشئ الذى ليس فيه شك هو انى التمسست المفتاح حيث تعودت ان أحفظه فلم أجده فجعلت افتش فى جيوبى كلها وما أكثرها فلم أجده وقد ضقت بذلك أشد الضيق ، حسبت اول الأمر انى قد أضعته ثم لم ألبث ان ذكرت انى خرجت مسرعا مع بعض الأصدقاء وأعجلنى الحديث فلم أت هذه الحركة اليسيرة التى انتزع بها المفتاح من مكانه واضعه فى الجيب الذى تعودت أن اضعه فيه .

فلما تبينت ذلك غشينى من الهم ماغشينى ووقفت واجما اول الأمر مترددا بعد ذلك . أطرق الباب فازعج من فى الدار ، أم أقوم مكانى حتى يسفر الصبح ويهب النوم ، أم أعود إدراجى فاطوف فى شوارع الحى أنلهى بهذا التطواف عن الانتظار ، وقد طال على هذا التردد فتحولت عن مكانى ولكنى لم أخرج من الحديقة وانما جعلت أطوف حول الدار وأردت فى نفسى قول الشاعر القديم :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بابياتكم مادرت حيث أدور
ولم أكن أدور لأرى أم جعفر وانما كنت أدور مخافة ان أوقظ أم جعفر
او أزعجها فيكون شر فى هذه الدار التى لم تعرف الشر إلا قليلا .
ولست أحدثك بما كان حين انجلى الصبح واشرقت الشمس وفتحت
الأبواب واندفعت إلى غرفتى واسرعت إلى مضجعى والتمست الراحة
فلم أظفر منها بشئ ثم نهضت مكدودا مجدودا وأقبلت اسعى إليك ولم
أذق للنوم طعما فى هذه الليلة الطويلة القصيرة التى امتلأت من الأمر
بأشده غرابة وأعظمه سخفا ولولا قصة المفتاح هذه ، لما شككت فى
انى رأيت حلما من هذه الأحلام الكثيرة التى تعبت بنفوس الناس حين
يجن عليهم الليل ، ولكنك ترى انى مستيقظ منذ أشرق الصباح أمس .
ولعلك تذكر وما أظنك نسيت اننا قد قضينا شطرا من الليل عند صديقنا
فلان نسمر حول أحاديث الجن والشياطين وما تزعم العرب من الصلة
التي تكون بينهم وبين الشعراء والخطباء والكتاب والذين يتعرضون
للوان البيان . وقد قال قائل منا ان العرب فى جاهليتهم واسلامهم لم
يتحدثوا بما يكون بين الشياطين والخطباء والكتاب من صلات وانما

زعموا ان الشياطين قد وكلوا بالشعراء خاصة حتى إذا كان ابن شهيد في الأندلس زعم لنا في قصته المشهورة التوابع والزوابع ان للخطباء والكتاب شياطين كما ان للشعراء شياطين . وقد قص علينا في رسالته تلك زيارته لوادى الجن وما كان من حوار بينه وبين خطباء الجن وكتابهم أولئك الذين كانوا يلهمون خطباء الإنس وكتابهم ، وسمى لنا شيطان عبد الحميد الكاتب وشياطين غيره من اعلام البيان ، وسمى لنا شياطين جماعة من خصومه ومناقسيه في الفن ، وزعم لنا أنه خاصهم فخصهم وناظرهم فتفوق عليهم . وقد أخذت بحظي من هذا السمر كما أخذتم بحظوظكم منه فلما تفرقنا بقيت في نفسي هذه الأبيات التي القاها زهير بن نمير . ذلك الدليل الجنى لابن شهيد في زيارته المتصلة لتلك الأندية التي كان يجتمع فيها شياطين البيان ولعلك تذكر ان زهيرلقى أبياته هذه إلى صاحبه ابن شهيد وجعلها آية بينه وبينه . فكلما احتاج ابن شهيد إلى صاحبه انشد هذه الأبيات فيسرع إليه زهير ويحييه من الأمر إلى ما يريد .

وقد جعلت اردد هذه الأبيات في نفسي وانا امضى متباطئا إلى الدار ثم لست ادري لماذا لم اکتف بإدارة هذه الأبيات في نفسي وإنما جعلت انشدها في صوت خافت لا يكاد يسمعه غيري .

وإلى زهير الحب ياعز انه إذا ذكرته الذاکرات اتاها إذا جرت الأفواه يوما بذكرها يخيل لى انى اقبل فاهها فاغشى ديار الذاکرين وان نات أجارع من دارى هوى لهواها ولكنى لم اكد افرغ من انشاد البيت الثالث حتى احسست الرعدة تاخذنى اخذا عنيفا كدت اهوى له إلى الأرض لولا انى تماسكت ، ولولا ان ذراعا قوية عصمتنى من السقوط . فقد سمعت صوتا غريبا نحىلا ياخذنى من جميع اقطارى وهو يقول لميك لميك هانذا زهير بن نمير خليل شاعرك الأندلسى ابن شهيد فى الزمان الأول والدهر القديم . ولست أخفى عليك انى قد انكرت من هذا الأمر مثل ما تنكر ولم ترتسم على وجهى هذه الابتسامة الساخرة التى ترتسم على وجهك الآن ، وإنما تقبض وجهى تقبضا شديدا وجعل العرق البارد ييل جبهتى ، وهم لسانى ان يدور فى فمى صائحا مستغيثا ولكنى اسمع الصوت

النحيل يسعى إلى وكلما دنا منى زال عنه نحوله وجعل يمتلىء شيئاً فشيئاً وجرت فيه نغيمات عذبة وهو يقول : لابس عليك لا ترع وائل معى قول الله عز وجل « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا يذكر الله تطمئن القلوب » فقد تلا هذه الآية من قبلك جماعة من أمثالك العرب حين روعوا بمثل ماتروع به الآن من لقاء أصدقائهم من الجن .

وقد سمعنى أتلو هذه الآية الكريمة مع صاحبى ثم رأيتنى أثوب إلى نفسى أو رأيت نفسى تثوب إلى وإذا قلبى آمن كله وإذا أنا هادىء هدوء لا أكاد أعرفه من نفسى حين يفجئها مالا تنتظر وإذا أنا أسعى مع صاحبى كما تعودت أن أسعى معك فى غير وحشة ولا تكلف كأنما كان بينى وبينه ود قديم قد بعد به العهد وطال عليه الزمان . ويجب ان اعترف لك بأنى أحسست فى ذلك الوقت ان لى شخصين مختلفين أحدهما يساير صاحبى فيسمع منه ويتحدث إليه والآخر عاكف على نفسه فى ناحية من نواحي الضمير يرقب ويسمع ويرى ويحاول التحليل والتعليل ويزعم لى أن ما أنا فيه إنما هو لون من ألوان الحلم لا عرض من أعراض اليقظة ولكنى شغلت عن هذا الشخص الذى انتبذ ناحية من نواحي الضمير بهذا الرفيق الذى جعل يتحدث إلى بالأعاجيب . فقد كان يقول لى : صدقنى ان هذا العلم الذى أخذه قدامؤكم عن اليونان وأخذه محدثوكم عن الأوربيين قد أفسد عليكم شيئاً كثيراً وأشاع فى نفوسكم فنا من الكبرياء والغرور حرمكم متاعاً لا حد له . فانتهم تنكرون ما كان يعرفه قدامؤكم من معاشرة الجن ومخالفة شياطين الفن فإذا تحدث إليكم أبو العلاء بشيء من ذلك فى رسالة الغفران أو إذا تحدث إليكم ابن شهيد بشيء من ذلك فى رسالة التواضع والزواضع لم تصدقوه ولم تطمئنوا إليه وإنما استمتعتم به فى شيء من السخرية والتكذيب على انه من آثار الخيال وفن من فنون الصنعة وما أبعد الفرق بين من يستمتع بالخيال المخترع ومن يستمتع بالحق الواقع الذى لا شك فيه . وانكم تنكرون المصادقة وتردون كل شيء إلى ما تسمونه الأصول والقوانين فردوا الأشياء إلى ما تريدون ولكن اعترف بأن المصادقة وحدها هى التى انطلقت بهذه الأبيات ، فإذا أنا استجيب لك مسرعاً لأجدد معك ذلك العهد القديم الذى كان بينى وبين ابن شهيد شاعر الاندلس وخطيبها وكاتبها . وانت من غير شك حريص كما حرص ابن شهيد على ان تقر من حياة الناس لحظات طوال

او قصارا دون ان تقطع الصلة بينك وبينهم وانما تراهم فى شياطينهم او ترى شياطينهم وهم يزينون ما سيملاون به قلوبهم ويحركون به السننهم ويجرون به اقلامهم من الوان القول .

وقد زرت ابن شهيد على ظهر جواد اصيل ، اما انت فقد ظهرت لك فجأة لم تدر انجمت لك من الأرض ام هبطت عليك من السماء وما اظنك تنكر من ذلك شيئا . فانتم لاتتخذون الخيل الان اداة للانتقال وانما تنتقلون فى سياراتكم وطياراتكم وقطاراتكم هذه التى تخيلون إلى انفسكم انكم قد احدثتم بها المعجزات وابتكرتم بها الاعاجيب ، واطنك توافقنى على اننا معشر الجن اقدر منكم على اختراع الطرائف وابتكار الاعاجيب واين تقع طرائفكم واعاجيبكم مما كنا نأتى به من الطرائف والاعاجيب فى عهد سليمان عليه السلام . وإذا كنتم قد بلغت ما بلغت من المهارة والبراعة فى عشرين قرنا فاحرى ان نبلغ نحن من المهارة والبراعة فى هذا الأمد الطويل بالقياس اليكم ، القصير بالقياس إلينا مالا يخطر لكم على بال .

وما أريد ان اشق عليك ولا ان اكلفك من الأمر مالا تحب وانما أريد ان أزور معك ناديا من انديتنا هذه التى يجتمع فيها شياطين البيان وان اظهرك عليهم حين يخلو بعضهم إلى بعض وقد فارقوا قراءهم من كتاب الإنس حين تقدم الليل واوى كتاب الإنس إلى مضاجعهم واقبل شياطينهم إلى ناديتهم يجدون حينا ويعبتون فى أكثر الأحيان . وهممت ان ارد على صاحبى رجع حديثه ولكنى ارانى فى قصر فخم ضخم لا أدرى انقلت انا إليه ام نقل هو إلى ولكنى اجد نفسى فيه دون ان اتكلف لذلك سعيأ أو حركة واسمع صاحبى زهيرا يقول متضاحكا : قد يخيل إليك ان هذا النادى فى ضاحية من ضواحي القاهرة كهذه الاندية التى تنبث حول مدينتكم هذه الصغيرة ولكن لاتجزع نفسك فإن بينك وبين القاهرة امانا لاتقطعها السيارات ولا الطيارات ولا القطارات ، ولولا أنى رفيق بك وفى لك لظهرتك على بعض ما بينك وبين القاهرة من أمد . ولكن أخشى ان اروعك ، فاعد معى تلاوة الآية الكريمة « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » وانا اتلو معه الآية الكريمة واجد الطمانينة والأمن واهم ان اتحدث إلى صاحبى ولكنه يبتدرنى بالحديث فيقول .

تعلم ان هذا النادى الذى أنت فيه مقصور على شياطين البيان الذين

يلوذون بأدبائكم انتم المصريين دون غيرهم من الادباء . فلن ترى في هذا القصر إلا قرينا لكاتب أو شاعر أو خطيب من هؤلاء الذين يملأون الجو في بلدكم فصاحة وبلاغة وبيانا . فأى شيطان من هؤلاء يملأون الجو في بلدكم فصاحة وبلاغة وبيانا . فأى شيطان من هؤلاء الشياطين تحب أن ترى ولا يهم تحب أن تسمع ومع ايهم تحب أن تأخذ في الحديث ! قلت لا ادرى فأنى اعرف كتابنا وشعرانا وخطباءنا لكثرة ما اقرا واسمع من آثارهم ولو خيرتني لاقترحتك عليك أن تزور معي ناديا من اندية الشياطين الذين يوحون إلى جيل آخر من اجيال الادباء . قال زهير سبحان الله ما زلت بعد غارقا فيما يغرق امثالك فيه من الوهم . انك لاتعرف كتابا ولاشاعرا ولا خطيبا حق المعرفة حتى ترى شيطانه وتسمع منه ، لأن ما يلقي إليكم من آثار الادباء ليس إلا صدى ضئيلا لهذا الصوت الخصب الذي ينفث في القلوب ويطلق اللسنة ويجري الأقلام وسترى بعد لحظات انك لاتعرف من أمر أدبائكم إلا ايسره واهونه شائنا فامض معي .

ولم نكد نخطو خطوات حتى دفعنا الى بهو رحب بعيد الأرجاء تضطرب فيه ظلال غريبة ضئيلة وهي تتصايح وتتصاخب ويكاد بعضها يمزق بعضها لو أن الظلال يمكن أن تتمزق أو يدركها البلى . وقد انفرد من بين هذه الظلال شخص غريب مرتفع في السماء ممتد في الفضاء كثير حركات الوجه كثير اضطراب الاعضاء لا يستقر في مكان ولا يستقر لسانه في فمه ولا تكاد اعضاءه تستقر في مواضعها من جسمه ، وانما هو حركة متصلة وصياح لاينقطع ، وقد حرص على أن لا يدنو من الظلال الأخرى التي تضطرب في البهو فتملاؤه دويا كدوى التحل ، وانما هو ممتاز منها دائما لا تكاد تدنو منه إلا نأى عنها ولا تكاد تسعى إليه إلا ارتد في أنفة وكبرياء ، وتجافى في غلظة منكرة . قلت لصاحبي : زهير ما هذه الظلال ؟ قال ضاحكا : هي جماعة من الشياطين لم تأخذ من الفن بحظ ، ولكنها خدعت عن نفسها وملاها الغرور فقامت في هذا البهو مضطربة صاحبة تريد أن تقتحم على شياطين الفن نادبهم فلا تبلغ من ذلك شيئا لأنها ترد عن نادى الفن ردا عنيفا : وليس اضطرابها هذا الذى ترى ، وليس عجيجها هذا الذى تسمع إلا مظهرها من مظاهر الغيظ وقنا من قنون الحنق وضربا من ضروب الإلحاح فى قرع الأبواب لعلها أن تفتح لها . قلت ، وما هذا

الشخص الذى يمتاز من هذه الظلال فيأبى أن يدنو منها أو أن يخلط نفسه بها ولا يؤذن له مع ذلك فى أن يتجاوز هذا البهو ، فهو يتحرك وكأنه ساكن ، ويسعى وكأنه واقف ، وينطق وكأنه صامت ، ويصخب وكأنه لايقول شيئا . قال : هذا مسيلمة الشياطين ، أراد أن يكون شيطانا من شياطين الفن فلم يستطع إلا أن يكون ثرثارا مكثارا مهزارا لاحظ لقلبه من غناء ولا حظ لعقله من علم ولا حظ لضميره من حكمة ، وانما اتيح له حظ من قدرة على الاضطراب والصخب لم يتح لغيره من هذه الظلال فهو ينأى عنها ولا يستطيع أن يقطع مابينه وبينها من الأسباب ، وليس من شك فى انه يمتاز منها بعض الامتياز . ولكن ليس من شك فى ان مايراه لنفسه فنا وما يحاول ان يلقيه إلى بعض من يتكثرون عندكم بالقول لايعدو ان يكون كما يروى من قول مسيلمة الانس : يا ضفدع بنت ضفدع ، نقى ماتنقين اعلاك فى الماء واسفلك فى الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين .

وهملت ان اتعجل صاحبي زيارة شياطين البيان ولكن أرانى فى مكاني ذاك من الطريق الى دارى واسمع صاحبي زهيرا يقول لى فى صوته التحيل الذى جعل بنأى عنى شيئا فشيئا . حسبك من ليلتك هذه ماريت فإن راقتك صحبتى ، وشاقتك زيارة شياطين البيان فانشد ما كان ينشد شاعر الاندلس وكاتبها وخطيبها ابن شهيد :
والى زهير الحب ياعز انه إذا ذكرته الذاكرات أتأها
إذا جرت الأفواه يوما بذكرها يخيل لى انى اقبل فأها
وأغشى ديار الذاكرين وان نأت أجارع من دارى هوى لهواها
ثم أطرق صاحبي لحظة ورفع إلى رأسه وهو يقول فى صوت هادىء منكسر : صدقنى ياسيدى او لاتصدقنى فإن ذلك لايفنى عن الحق شيئا . والحق الواقع الذى لاشك فيه هو انى قد رأيت وسمعت كل ما أحدثك به الآن .

قلت متضاحكا فلا تنشد هذا الشعر مرة أخرى وأنا معك فانى لست فى حاجة إلى أن أرى شيطانك الاندلسى . قال وهو يضحك ضحكا فيه كثير من السخرية ، لا بأس عليك فقد أنسيت ان أنبك بأنه زعم لى انه لن يستجيب لانشاد هذا الشعر إلا إذا كان هذا الانشاد بعد ان يتقدم الليل .



الطفل

لا تقولى انه رد إلى الطفولة بعد أن قطع مراحل
الصبا والشباب والكهولة ولم يكد يخطو فى
مرحلة الشيخوخة إلا خطى قصارا ، ولكن قولى
ياسيدتى انه لم يخرج قط من طور الطفولة
ولم يكد يعرف من الاطوار الأخرى التى يعرفها
الناس والتى ذكرتها أنفا شيئا ما . فانك ان قلت

ذلك كان قولك ادنى إلى الحق وكان رايك ادنى إلى الصواب ، واضحكى
ما شئت أن تضحكى فلست اكراه لك الجذل والابتهاج ، ولكن الإنكار
برفع الرأس وهز الكتفين لا يغير من الحق شيئا ، كما أن الاغراق فى
الضحك حتى تنهل الدموع من عينيك الجميلتين على خديك الاسيلين
لن يحول الخطأ إلى صواب .

فانت مخطئة يا سيدتى حين تظنين انه رد إلى الطفولة قبل أن يبلغ
الستين او قبل أن يبلغ أرذل العمر ، وصاحبنا بعيد كل البعد عن أرذل
العمر . فالذين يغفلون فى تقدير سنه يقولون انه قد قارب الستين ،
والذين يقتصدون فى ذلك يقولون انه لم يكد يتجاوز نصف القرن .
اما هو فيخفى سنه ولعله لا يعرف من امرها شيئا فقليل من الأطفال ،
ومن اطفالنا المصريين خاصة ، من يعرفون أسنانهم ..

وانا اعلم أن الجيل الجديد قد أخذ يقلد اجيال الغرب فى الاحتفال
باعياد الميلاد . وأخذ الأطفال والصبية يعرفون أسنانهم فى هذه الأيام
بحكم هذا التقليد . ولكن صاحبنا ليس من صبية الجيل الجديد ، وإنما
هو من صبية جيل آخر قد مضى ولم يكن الناس يعرفون فيه إلا مولد
النبي (صلى الله عليه وسلم) وموالد الاولياء والصالحين ، وميلاد
الخديو السابق . فاما عامة الناس فكانوا يجهلون الأيام التى ولدوا فيها
فضلا عن ان يذكروها ذكرا منظملا وأن يحتفلوا بها فى كل عام .

وصاحبنا لم يولد فى القاهرة ولا فى الاسكندرية ولا فى مدينة من هذه المدن التى يشتد فيها الاتصال بالأوربيين ، ويسهل فيها تبادل السنن والعادات . بل هو لم يولد فى مدينة من مدن الأقاليم التى كان يكثر فيها اليونان الذين يشتغلون بالتجارة ويلم بها الموظفون من الانجليز أيام كان الموظفون من الانجليز يطوفون فى المدن ليتعهدوا شئون الإدارة والرى والتعليم وإنما ولد صاحبنا فى قرية صغيرة يسيرة من قرى الريف ، لا يكاد سكانها يتجاوزون بضع عشرة مئة ولا تكاد هى تمتاز عن أمثالها من قرى الريف المصرى فى أواخر القرن الماضى ، حين كان الحديث عن القاهرة والاسكندرية يملأ النفوس روعة وإعجابا كأنه الحديث عن الأساطير ، وحين كانت المدن فى الأقاليم لا تبلغ إلا على ظهور الأبل أو على ظهور الحمير ، وحين كان الناس فى القرى لا يحفلون بتسجيل ابنائهم وبناتهم ، حين يولدون وإنما كانوا يتركون ذلك للداية تبلغه أو لا تبلغه إلى الحكومة تذكره مرة وتنساه مرة أخرى ، تهتم له مرة وتعرض عنه مرة أخرى . فليس غريبا أن يجهل صاحبنا سنه وليس غريبا أن يجهل الناس معه هذه السن .

وأنت تتكرين أن يجتمع على الرجل الواحد هذان الشيطان المتناقضان ، فيكون له جسم الشيخ وتكون له كل الخصائص الظاهرة التى يمتاز بها الشيوخ ، ثم يكون مع ذلك طفلا لم يمر بأطوار الصبا والشباب والكهولة . وهذا غريب من غير شك ، ولكن من الذى قال ان الغرائب لا توجد فى هذه الحياة ، ومن الذى يستطيع أن ينكر أن من الناس من تنمو أجسامهم نموا مطردا مألوفاً وتختلف عليها الأطوار المعروفة التى يمر الناس بها فى حياتهم ولكن نفوسهم تبقى مع ذلك محتفظة بطورها الأولى قد انتهت إلى حد من النمو لم تستطع أن تتجاوزه إلى غيره من الأطوار .

وليس من شك فى أن جسم صاحبنا قد نما وتطور كما ترين فعليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه شيب وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته ، وهذه التجاعيد الأخرى التى تمتد حول أنفه من يمين ومن شمال ، وهاتان العينان اللتان لا تنفرج عنهما الجفون إلا فى شئء

من الجهد ، حتى يخيّل إلى من يراه وقد اغمض جفنيه وتحدث أو تحرك انه إنسان يحيا من وراء ستار ، وهاتان الشفتان المنفرجتان اللتان لا تجتمعان إلا فى شىء من العناء ، سواء تكلم صاحبنا أو لبث صامتا ، وهذا التهدل والترهل فى وجهه الضخم وجسمه الذى يريد الشحم أن يكسوه فلا يستطيع ، وهذه الحركات البطيئة المتكسرة والمتعسرة التى تخيل إلى من يراها أنها تصدر عن مجموعة عصبية قد شملها الفتور وأخذ يشيع فيها الفناء وهذا الصوت المحطم الذى لا يكاد السامع يسمعه حتى يستحضر إناء من الزجاج وإناء من الفخار قد أصابه شق يسير فهو لا يرسل الصوت إذا مس إلا حدثنا بهذا الانحطام ، وهذا التنفس السريع الذى يتبع بعضه بعضا فى غير اناة ، كأنه تنفس المكدود المجهود والذى يسمعه القريب من مصدره والبعيد عنه كأنه يخرج من أنف قد كثرت فيه الأعشاب فهو لا ينفذ من بينها إلا نفوذا عسيرا .

كل هذه مظاهر تدل على أن صاحبنا قد كان طفلا وصيبا وقد كان شابا وكهلا ، وهو الآن شيخ يخضع لما يخضع له الشيوخ من أعراض الضعف والفناء ولكن التحدث إليه والاستماع منه والأخذ معه فى فنون الحوار كل ذلك يصور لنا صيبا كسلا لم يتجاوز طور الصبا . فهذا هو الذى قد خيل إليك ياسيدتى انه رد إلى الطفولة قبل الأوان ، ومصدر هذا انك لم تعرفيه إلا منذ وقت قصير . فاما أنا فقد عرفته منذ اعوام طوال لا أعدها لك لانى لست فى حاجة إلى أن تعرفى عددها . ولكنى عرفته حين كنت شابا وحين كان جسمه فى طور الشباب . ثم عرفته حين تقدمت بنا السن وحين اختلفت علينا ظروف الحياة وتجاربها وحين عرضت لنا المشكلات والخطوب ، وأنا اراه الآن فلا انكر منه شيئا ، لأننى عرفته دائما فى هذه الحال التى تربنها ولانى ضحكته منه دائما مع اترابنا كما تضحكين انت منه الآن ، ولانى قلت فيه دائما لاترابنا وسمعت فيه دائما من اترابنا هذه الجملة : مازال فلان طفلا ويظهر انه سيظهر طفلا مهما تقدمت به السن ومهما اختلف عليه أطوار الحياة .

وربما كان من الحق علينا أن نسجل الواقع فصاحبنا قد نشأ كما نشأ
أترابه واختلف إلى الكتاب وأوجعت فيه عصا سيدنا أحيانا واختلف
إلى المدارس المدنية وبلى فيها من حياة التلاميذ والطلاب حلوها
ومررها فأخفق حيناً ونجح أحيانا حتى أتم الدرس العالي كما أتمه كثير
من أترابه . ثم عبر البحر إلى أوروبا فدرس فى بعض أقطارها أعواما ،
ثم عاد إلى قريته فائزاً مظفراً وسعيداً موفوراً وكل هذا من غير شك
لايدل على طفولة ولا يدل على أن نمو قواه العقلية قد كان محدودا .
ولكن الغريب انه إلى جانب هذا النمو المطرد قد احتفظ بشيء من
خصال الاطفال لم يفارقه فى لحظة من لحظات حياته ، ولم يستطع
أترابه الذين رافقوه فى المدارس المصرية وفى الجامعات الأوروبية
وفى الحياة العملية بعد ذلك أن يجهلوه أو يتجاهلوه . فقد كان دائما
سريع التأثير جدا بما يسر وسريع التأثير جدا بما يسوء . وكان دائما
يتنقل من الرضى إلى السخط ومن السخط إلى الرضى فى غير تمهل
ولا أناة ولا شيء يشبه الروية أو التفكير ، وإنما كان أيسر الأشياء
يدفعه إلى الرضى فإذا هو فرح مرح وإذا ضحكه يملأ الجو من حوله ،
وإذا حركاته العنيفة تضحك منه أصحابه وتلفت إليه غيرهم من
الناس . وكان أيسر الأشياء يسخطه فإذا هو مغضب قد خرج عن
طوره ، وإذا عيناه تقدحان شررا وإذا فمه ينفجر عن أشنع اللفظ
وابشعه ، وإذا جسمه يدفع إلى حركات مضطربة تدعو إلى الإشفاق
عليه حيناً وإلى الإشفاق منه حيناً وإلى الضحك منه فى أكثر الأحيان .
وكان حكمه على الأشياء قاصرا أو واهيا منحلا ، لا يعتمد على
تفكير صحيح ولا على منطق دقيق ولا على شعور صادق بحقائق
الأشياء ، وإنما كان له ومازال له منطق خاص لا يكاد الناس يفهمونه عنه
ولا يكاد الناس يقبلونه منه ، وإنما يسمعونه إذا تكلم فيدهشون
ويأخذهم شيء من العجب . فإذا ردوا عليه متكرين أخرجه انكارهم عن
طوره ودفعه إلى الغضب الثائر والسخط العنيف . فهم بين اثنتين
أما أن يجاروه فيرضى وتغضب عقولهم ، وأما أن يخاصموه فيغضب
وترضى عقولهم . وقد هموا بالثانية فوجدوا منه شططا وأرهقوه من

أمرهم عسرا وانتهت طفولته الجامعة إلى ان تنتصر على عقولهم
الراجعة .

وأكبر الظن انه قد تعود هذه المجازاة والمداراة منذ طفولته الأولى
فاستجاب أبواه إلى كل ما كان يريد وحققا له كل ما كان يبتغي ، فنشا
واثقا بأن العالم قد خلق له يدعو فيجاب . ويأمر فيطاع وبأن كلمة لا لم
تخلق لتسمعها إذناه وانما خلقت لينطق بها لسانه وأكبر الظن أيضا ان
هذا الحظ قد رافقه في دراساته الأولى . واية ذلك ان سيدنا لم يكد
يغضب عليه ويؤذيه بعصاه مرة حتى حوله أبواه من الكتاب إلى
المدارس النظامية التي لا يضرب فيها التلاميذ . وليس من شك في ان
حب أبيه له ورعايته لهذا المزاج المدلل الرقيق وحرصه على
الايتعرض لما يكره او ان يرد عما يريد كل ذلك قد رافقه من قريب
او بعيد فلم تصدمه التجارب القاسية ولم تعلمه المصاعب ان ظروف
الحياة يجب ان تتسلط على الناس أكثر مما يتسلط الناس عليها وان
تؤثر في الناس أكثر مما يؤثر الناس فيها . فادرك الشباب على هذه
الحال مؤمنا بنفسه كما يؤمن الطفل بنفسه مغامرا كما يغامر الطفل ،
لا يفكر ولا يقدر ولا يرجو لشيء وقارا وإنما يريد فيقدم على ما يريد .
والغريب انه كان يبلغ كل ما يريد . كان يبلغ كل ما يريد لانه نشأ في
أسرة موفورة لها حظ من ثراء ونصيب من الاتصال بالأغنياء وأصحاب
الجاه ، فكان ثراء الأسرة وحبها له وعطفها عليه كل ذلك يذل له
المصاعب الخاصة ، وكان اتصال الأسرة بأصحاب الجاه والغنى يذل
له المصاعب الاجتماعية التي كان يمكن أن تعترض طريقه في الحياة
وليس ادل على ذلك من انه رأى الناس يكتبون فحلول ان يكتب ثم اظهر
أسرته على ما كتب فاثنت عليه عن علم او جهل . ثم اظهر من اتصل
بهم أسرته على ما كتب فاثنوا عليه عن علم او جهل . ثم رأى الناس
ينشرون فهم ان ينشر كغيره من الناس ولكن الصحف امتنعت عليه
فوجد من ذوى الغنى والجاه من يتوسط له عند هذه الصحيفة او تلك
وإذا هو يرى اسمه مطبوعا في مجلة شهرية او اسبوعية ثم في
صحيفة سيارة متواضعة ثم في صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، وإذا

هو كاتب كغيره من الكتاب يقرأ نفسه ولا يقرأه الناس بعد ذلك فاما الذين يرونه ويعرفونه فيرضون ويثنون ويشجعون واما الذين لا يرونه ولا يعرفونه فقد يرضون وقد يسخطون وقد يعرفون وقد ينكرون ولكن صاحبنا لا يعلم من ذلك شيئا ولا يعنيه ان يعلم من ذلك شيئا .

والمهم انه لم يكد يتم الدرس حتى كان فى رأى نفسه ورأى ذوى معرفته كاتباً ممتازاً . ولم يكد يعود من أوربا حتى هجم على التأليف كما هجم من قبل على التحرير ، وإذا له كتب تذاع وتباع وإذا أيسر الثناء على فصل يحرره او كتاب ينشره يثير فى نفسه من الرضى ما يخرج عن طوره ، وإذا أيسر النقد لفصل يحرره او كتاب ينشره يثير فى نفسه من السخط ما يخرج عن طوره . وإذا ثقته بنفسه على نحو ما يثق الاطفال بانفسهم تفرضه على قراء الصحف والكتب والمجلات . ثم لا تكاد الأيام تتقدم حتى تضيف الحياة إلى هذه الثقة ثقة أخرى ، وإذا الأمر يستحيل فى نفسه إلى الغرور الذى لا حد له فى طول او عرض او عمق إن صبح أن تكون للغرور أبعاد ، فقد اتصل صاحبنا بوجوه الناس وسراتهم ، واختلف إلى انديتهم ومجالسهم وفرض نفسه عليهم بحكم المودة والقربة والصلات المختلفة ، فاصبح واحدا منهم يشارك فى ما يشاركون فيه من شئون الحياة العامة والخاصة ويسرف على نفسه وعلى الناس فى هذه المشاركة ، والأيام تبسم له فى أكثر الأحيان ، ولا تعبس له إلا قليلا وهى لا تعبس له مع ذلك إلا بمقدار .

وفى احداث التطور السياسى والاضطراب الخلقى والانتقال الاجتماعى وما كان من تغير القيم واختلاف المقاييس ما يتم القصة إن كانت فى حاجة إلى إتمام ويكمل الصورة إن كانت فى حاجة إلى إكمال . ولكن الشئ المحقق هو أن الحياة المستقرة الثابتة التى تجرى الأمور فيها على إذلالها تعلم الناس أن ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، ومضاء العزيمة ، والصبر على المكاره ، والاحتمال للخطوب واخذ النفس بما يشق عليها ، وتجنبها الطرق الممهدة والأمور الميسرة هى الخصال

التي تبلغ بالناس ما يسمون إليه من نجح وفوز ولكن الحياة المنتقلة
المنطورة التي لا تهدأ إلا لتثور ، ولا تسكن إلا لتضطرب تعلم الناس
أن الطفولة المتصلة قد ترفع أصحابها إلى مكان الألفاظ .
قالت السيدة وكانت أديبة أريية : لقد أخطأ علماء البيان حين
لم يرضوا عن هذا البيت الصالح الجميل من قول الشاعر القديم :
والعيش خير في ظلا ل النوك ممن عاش كدا





Effat
89

الظلال المائية

لم يشعر بطرق الباب حين طرق ولا بفتحه حين فتح . ولم يحس مكان الخادم حين أقبلت تحمل الشاي فوضعت على المائدة عن يمينه ، وألقت إليه نظرة سريعة فيها شيء من عجب وكادت ترفع كتفها ساخرة ، لولا أن ملكت نفسها واستحضرت ما يجب عليها من توقير سيدها ، فانصرفت متباطئة متناقلة ، حتى إذا بلغت الباب فتحت في شيء قليل من العنف وأغلقت من ورائها في شيء قليل من العنف أيضا تريد أن تنبه هذا الذي لا يتنبه لشيء لأنه مغرق في قراءته . على أنها لم تكد تغلق الباب من ورائها حتى أحست شيئا من راحة الضمير فقد أدت الواجب كاملا ، حملت إلى سيدها الشاي في أمانه ، وطرقت الباب وخيل إليها أنها سمعت الإذن لها بالدخول ، فدخلت وخرجت وأتت من الحركات ما يوقظ النائم فكيف بتنبيه الغافل أو الداهل أو المغرق في القراءة ؟ لقد أدت الواجب كاملا فلا عليها أن يتنبه سيدها أو لا يتنبه ، ولا عليها أن يشرب الشاي وهو ساخن كما يجب أو أن يشربه وقد أدركه الفتور أو البرد أو ألا يشربه أصلا . والواقع أن سيدها لم يتنبه لمقدمها ولا لانصرافها ولا للشاي الذي كان يدعو عن يمينه ، ولكنه لم يكن يسمع دعاء ولا يجد الظما كما تعود أن يجده كل يوم في هذا الموعد الذي كان يقدم إليه فيه الشاي .

كان مغرقا في القراءة ثم انتهى من الكتاب الذي كان يقرأ فيه إلى فصل لم يتجاوزه ، وإنما عاد إليه فقرأ مرة ومرة ، ثم كف عن القراءة ولكنه وصل بصره في هذا الفصل الذي أعاد قراءته وظل مطرقا ممعنا في الاطراق والتفكير ، ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر أمامه لا يريد أن يرى شيئا وإنما هو واجم باسم ينظر ولا يرى

ويفكر ولا يحقق شيئا ، ثم تتسع ابتسامته قليلا ثم ينفرج فمه عن ضحك يريد أن يعلو ، ويملا الغرفة لولا أنه يمسكه ويوشك أن يرده إلى جوفه ردا لانه قد ثاب نفسه فجأة واشفق أن يسمع ضحكه من وراء الباب فتظن به الظنون ، هنالك التفت فرأى ابريق الشاي كئيبا مستخدنيا لكثرة مادعا إلى نفسه والح في الدعاء فلم يستجب له أحد لان دعاءه لم يبلغ احدا . فاقبل صاحبنا على الأبريق يمسكه بيده مس خفيفا ثم يمسحه بيده ممحا متصلا كأنما يترضاه ويعزيه . وقد احس برد هذا الأبريق وعرف أن الشاي الذي يحتويه لم يعد ملائما لذوقه والفه ، وهم أن يدق الجرس ويدعو الخادم لثانيه بشاي جديد ولكنه استحميا واشفق أن تسخر منه الخادم . إذا رات شايها لم يمس وإن تعيد القصة على امراته وبنيه فلا يفرغ منهم ولا من عبثهم إذا كان العشاء . فلم يربدا من أن يشرب الشاي كما هو ، وقد ملأ قدحه وجعل يدير فيه المعلقة يريد أن يذيب هذا السكر الذي يستعصى ولا يريد أن يذوب في هذا السائل البارد . ولكن صاحبنا نسي الشاي مرة أخرى وجعلت يده تدير هذه المعلقة في هذا القدر إدارة آلية غير شاعرة بنفسها لانه عاد إلى التفكير في هذا الفصل الذي كان يردد قراءته آنفا . ثم عاد إلى التفكير في هذا الفصل ثم لم يطل الوقوف عنده هذه المرة ، وإنما ذهب به الخيال مذاهب مختلفة لم تلبث أن ردت به إلى الابتسام ثم إلى الضحك المكظوم .

وكان هذا الفصل من كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء ويجب أن أروى لك بعضه لتعذر صاحبنا في إطالة الوقوف عنده والتفكير فيه ثم في اتخاذه معراجا يرقى فيه إلى سماء بعيدة جدا من سموات الخيال : « يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمه ، ويجد الطعام بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي إلى الغرض على هامته .. »

فقد وقفه هذا الكلام الغريب ، اضحكته الصور الظاهرة منه اول الامر ، ثم جعل يستعرض طائفة من أصدقائه وذوى معرفته فيتخيل بعضهم ماشيا على رأسه قد اتخذ الطربوش أو العمامة أو القلنسوة

غطاء لرجليه ، ويتخيل بعضهم باكيا بإحدى أصابعه أو أكلا بإحدى أذنيه . فندفعه هذه الصور مطبقة على ما يعرف من أصحابه إلى الإغراق في الضحك ثم تتوب إلى نفسه شيئا فشيئا ، ويقدم عقله على الجذ قليلا . وإذا هو ينظر إلى الأمر نظرة فلسفية حازمة فيرى أن صاحب هذه الخواطر لم يخطيء . فقد خلق هذا العالم على هذا النحو الذى نعرفه وكان من الجائز أن يخلق على نحو آخر ، بل من الجائز أن يحوله خالقه من هذا النحو الذى خلقه عليه إلى نحو آخر يمشى فيه الناس على رؤوسهم وينظرون بأقدامهم ويدوقون بأذانهم .. إلى آخر ما زعم أبو العلاء .

ومدامت قدرة الله شاملة فلن يعجزها شيء . ثم يتلو فى نفسه الآية الكريمة : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » قدرة الله إذن شاملة لا يعجزها شيء مهما يكن ، وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى نفسه ملحا عليها إلحاحا شديدا ، وجعل خياله يتصور الوانا من الأشياء لم يرها الناس ولم يتعودوا أن يروها أو يتحدثوا عنها ويقول لنفسه إن الله قادر على أن يخلق هذه الأشياء كما اتخيلها وأشياء أخرى لا اتخيلها أنا . وإنما يتخيلها غيرى من الناس أو لا تخطر للناس على بال . ثم تعرض لخياله صور يقف عندها وقوفا طويلا . فالله قادر على أن يصور ما يمتاز الناس به من الفضائل فى شكل فتيات حسان يوسعن أصحابها ثناء وتشجيعا . والله قادر على أن يصور ما يتصف به الناس من الرذائل فى شكل فتيات قباح يشبعن من يتصف بهن ذما ولوما وتقريعا .

ثم يأخذ فى استقصاء ما يعرف من أخلاق نفسه فيرى وفاء للأصدقاء وبره بهم وإيثاره لهم بالمعروف وقد تصور أمامه فتاة حسناء تهدى إليه ابتسامات حلوة من بعد ، ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم تلحظه لحظا فيه كثير من الحب والعطف والحنان . ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم ترسل إليه صوتا عذبا كأنه صوت الملائكة لو أنه سمع للملائكة غناء

او حديثا . وهذا الصوت يحمل إليه دعابة حلوة وتحية كريمة . وهو يجد اللذة كل اللذة فيما يرى والمتعة كل المتعة فيما يسمع ولكن هذا الوجه الرائع الجميل الذى يدنو منه شيئا فشيئا لا يلبث ان تغشاه سحابة رقيقة من الكآبة والحزن ، ثم تزداد هذه السحابة كثافة وثقلا وبشاعة كلما دنا منه ذلك الوجه الذى كان يراه رائعا جميلا . وقد خطر له فى اثناء ذلك أنه لم يكن وفيا كل الوفاء ولا برا كل البر وأنه فى ذات يوم قد خان العهد وجحد المودة ، وانكر الجميل وعق الصديق ، وأنه قد أقدم طائعا أو كارها على بعض الغدر الذى يحاول أن ينساه فلا يستطيع ولا يكاد يفرغ من هذا التفكير حتى يحس شخصا منكرا بشعا قد وقف عن يمينه وجعلت أصابعه الغلاظ السمجة تعبت فى شعره ذاهبة جائئة وجعل صوته خافتا أشد الخفوت ولكنه منكر أشنع النكر يقول له :

يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدميه ويمشى على رأسه ، ويقدر ربنا أن يحيى الموتى ، ويقدر ربنا أن يصور مافى نفوس الناس من الفضائل فتيات حسنا ويقدر ربنا أن يرد هؤلاء الفتيات الحسان قبيحات بشعات منكرات اللفظ واللحظ والصورة . ويقدر ربنا أن يخرج هؤلاء الفتيات من القبح إلى الحسن ومن البشاعة إلى الجمال فالنفس الإنسانية واحدة تحسن مرة وتسيء مرات ، والله قادر على أن يصور لها عملها فتاة يسبغ عليها الجمال والحسن مرة ويصب عليها القبح والبشاعة مرة أخرى . انظر . ويفتح عينه فيرى فتاته تلك قد عادت إلى جمالها وروعها ، وقد أخذت ابتساماتها تمتلئ سحرا ولحظاتها تمتلئ فتونا وصوتها يمتلئ موسيقى تخلق القلوب وتعبت بالالباب وهى تتلو « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » وقد تنبه صاحبنا مدعورا أشد الذعر وظن أن قد أخذته غفوة فنام ، وعبثت به خواطر أبى العلاء فصور له فى غفوته هذا الحلم الغريب وقد أخذ يسترد نفسه النافرة ويدعو خواطره الشاردة يستعين على ذلك بهذا القدح من الشاي عن يمينه فهو يرفعه إلى فمه فيفرغه فى لحظة ثم يرده إلى مكانه فى شيء من عنف مقصود يريد أن يحدث

صوتا يعيد إليه صوابه كله ويطرد من هذه الغرفة ما رددت فيها الأحلام من تلك الأصوات ، ولكنه ينظر فإذا اشخاص قائمة فى اقصى الغرفة منها الحُسن الرائع ومنها القبيح البشع وكلها تنطق بصوت يوشك ان يكون صوتا واحدا ، يقدر ربنا ان يجعل الإنسان ينظر بقدميه ويمشى على رأسه . ويقدر ربنا ان يحيى الموتى ويميت الأحياء ويقدر ربنا ان يصور الفضائل والردائل فتيات حسانا أو قباحا ، ويقدر ربنا ان يملأ الأرض بهؤلاء الفتيات تصور كل واحدة منهن ما يحدث الناس من اعمال فيها الخير والشر وفيها العرف والنكر ، ويقدر ربنا ان يخفى هذه الظلال عن أعين الناس ما شغلتهم الحياة ، وأن يظهر هذه الظلال لأعين الناس إذا خلوا إلى انفسهم وحاسبوها حسابا عسيرا او يسيرا . وقد امتلأ قلب صاحبنا رعبا . وهم ان ينهض بنفسه من هذه الغرفة المشؤومة الموبوءة وليجد عند اهله وبنيه انسب من هذه الوحشة ، ولكنه لا يجد قوة على النهوض كأنما اتصل بكرسيه اتصالا وكان كرسيه قد سمر فى الأرض وإذا صيحة هائلة تملأ الغرفة ويفتح لها الباب وتدخل منه امراته مروعة تسأله : ما خطبك ؟ فيجيب فى صوت غريب يمتزج فيه الخوف بالهدوء والضحك بالخجل : ما ادرى لعلى غفوت فاخذنى ما يشبه الكابوس ولكن صوتا خافقا جدا يسمعه هو ولا تسمعه امراته وهذا الصوت يهمس فى أذنه ، كلا لم تغف ولم تروك الأحلام والكابوس وإنما رايت الظلال الهائمة ولن تامن منذ اليوم ان تراها .

قلت لمحدثى وكان طبيبا بالأعصاب : اتريد ان تقول ان من الخير ان يحسن الناس اختيار ما يقرأون من الكتب ، فإن القراءة التى يمضى فيها اصحابها على غير اختيار سابق لما يلائم أعصابهم وامزجتهم قد تنهى بهم إلى شر عظيم . قال محدثى هيهات وكيف السبيل إلى تنظيم القراءة للرجال العاقلين وكيف السبيل إلى ان يعرف الناس ما يلائمهم وما لا يلائمهم مما يقرأون ؟ هيهات لم أرد إلى هذا ولا يمكن ان أريد إنما احببت ان أبين لك ان قلب الإنسان غريب يقسو أحيانا فإذا هو كالجمرة أو أشد قسوة ويلين أحيانا فإذا هو كهذه الأرض الرخوة

التي امتلأت ماء لا تكاد تمس حتى تنفجر منها العيون والينابيع وقلب صاحبنا هذا قد قسا فكان كالحجارة أو أشد قسوة ، فأتى ما أتى من الشرولان فكان كهذه الأرض التي امتلأت ماء ، مسها أبو العلاء بخاطره هذا الغريب فتفجر منها هذا ينبوع الذي نستطيع أن نسميه ينبوع الندم .

واطرق محدثي الطبيب ساعة ثم رفع رأسه إلى ضاحكا وهو يقول :
نعم ان قلب الإنسان لغريب أتذكر ما قال فيه جوته انه كبير جدا لا يملأه شيء وهش جدا يحطمه أيسر شيء .





غالب

كان محمد بن عبد الملك الزيـات قاسى القلب غليظ
الكبد جافى الطبع بليد المزاج . وكان على هذا
كله اديبا مرهف الحس نافذ البصيرة رقيق
الشعور ، صافى الذوق مترف العقل ممتازا فيما
يكتب من نثر وفيما يقرض من شعر . وكانت
السياسة ، والسياسة وحدها ، هى التى اتاحت
لهذين الشخصين المتناقضين ان يعيشا فى جسم واحد وان يتسميا
باسم واحد ، وان يصدر عنهما مع ذلك من الأعمال والأقوال ما ليس إلى
التوفيق بينه سبيل .

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيـات أقسى الناس فى القول والعمل
ما تولى أمور الحكم ، وكان أرق الناس قولاً وعملاً مافرغ لحياته
الخاصة . وقد ذهبت حياته الخاصة مع ما يذهب من حياة الناس .
وبقيت من حياته العامة آثار تصور نفسه البشعة وقلبه القاسى وطبعه
الجافى وعنفه الذى لم يكد تاريخ المسلمين يعرف له نظيراً .

وكان محمد بن عبد الملك الزيـات يقول فيما كان يقول : ان الرحمة
خور فى الطبيعة ، وكان محمد بن عبد الملك الزيـات يقترب فيما كان
يقترب من الآثام . اذاق الناس ألوانا من العذاب لم يعرفها قبله عرب
ولا عجم . والله عز وجل يعجل الانتقام حيناً ويملى للقساة الجفاة
الظالمين أحياناً ، وقد عجل الانتقام من محمد بن عبد الملك الزيـات
فذاق العذاب الذى اذاقه الناس أيام حكمه ، وكان معذبه يقول له « ذق
إنك انت العزيز الكريم » .

ولست أدري لم ذكرت محمد بن عبد الملك الزيـات وقصته هذه
البشعة ، وسيرته هذه المنكرة وحكمه هذا البغيض . وقد تغيرت حياة
الناس فرقت طباعهم بعد جفوة ، ولانت قلوبهم بعد قسوة ، ولم يبق

بينهم في مصر على الأقل من يقول أن الرحمة خور في الطبيعة ، ومن يعذب الناس في تنور قد قرشت أرضه بالمسامير المدببة ، وقد امتدت هذه المسامير المدببة في سقفه وجناباته فما يقيم فيه المعذب البائس إلا على هذه المسامير تأخذ لحمه من كل ناحية إن أقام ساكنا أو تحرك في تنوره هذا المنكر البشع .

ليس في مصر شيء من هذا لأننا قد تحضرنا فرقت طباعنا وصفت أذواقنا ولانت قلوبنا وتهذبت نفوسنا . واذن فما الذي يذكرني بمحمد ابن عبد الملك الزيات في القرن الرابع عشر للهجرة ، وفي مدينة القاهرة التي هي عاصمة مصر التي قال عنها إسماعيل العظيم رحمه الله « إنها جزء من أوربا » .

ذكرني بمحمد بن عبد الملك الزيات في قسوته الغليظة الجافية ما إلا لحظة من أن الترف لم يغير من غرائزنا شيئا ، وإنما علمها القسوة المترفة وعلمها الاقتنان في العذاب وعلمها الترف في ألوان الانتقام ، فنحن لا نعذب الأجسام وإنما نعذب النفوس ، ونحن لا نلقي الناس في تنور أشرعت فيه المسامير من جميع أقطاره وإنما نلقي الناس في ألوان من العذاب ليست أقل بشاعة ولا نكرا من هذا التنور الذي ابتكره ذلك الوزير العباسي في القرن الثالث للهجرة وفي مدينة السلام .

وليس في هذا شيء من الغرابة فإن تقدم الحضارة الإنسانية لم يرق العقل وحده ، ولا الذوق وحده ، وإنما رقى الغرائز أيضا وعلمها فنونا من القسوة ما كانت لتخطر لمحمد بن عبد الملك الزيات واضرابه على بال . وللفرنسيين تعبير يصور هذا الترف في القسوة وهذا الافتنان في الانتقام ، فهم يقولون فيمن يصب على الناس عذابا هادئا ولكنه متصل منته إلى أبشع الغايات ، أنه ينضج من يعذبه على نار هادئة . ونحن والحمد لله بارعون كل البراعة في الإنضاج على النار الهادئة ، نجد في هذا لذة أئمة خبيثة توشك أن تكون مسخا لما كان الإنسان يظن أنه يمتاز به من ذكاء القلب ونفاذ البصيرة وصفاء الذوق ودقة الطبع . وأي شيء أبغض وأبشع وأشد في النفوس نكرا من أن تصب على خصمك هذا العذاب الهين اللين الرقيق ، الذي لا يكاد يرى ولا تكاد آثاره

تحس ، ولكنه يتصل ويمضى مع الدقائق والساعات ومع الايام والليالى ومع الأسابيع والأشهر والأعوام ، حتى يبلغ ببطئه هذا القطيع الضعاف ما كان يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات بعذابه المنكر السريع .

وأشنع من هذا كله وأشد من هذا كله نكرا ان يصطبغ هذا العذاب الهادئ المتصل البطيء بصبغة من العدل او مما اتفقنا على ان نسميه عدلا ، فلا يجوز إنكاره ولا يباح نقده ولا يصح أن يلام فيه الذين يقترفونه ، لانهم ينفذون القانون وينفذونه فى دقة حازمة صارمة ، وهم يحمدون لذلك ولا يلامون فيه ، وكيف يلام الناس حين ينفذون القانون ؟ وكيف يعاب الناس حين يتشرون هذا العدل الذى يصنعونه صناعة ويتكفلونه تكلفا ويناقضون به طبائع الاشياء ويناقضون به هذه القوانين العليا التى لم يضعها برلمان ولم يشرعها ملك ولا حاكم ، وإنما ركبت فى نفوس الناس تركيبا وجعلت جزءا من فطرتهم .

وما اشد حاجة الناس إلى ان يفرغوا لانفسهم بين حين وحين ويتدبروا أعمالهم وأقوالهم بين وقت ووقت ، ويضعوا انفسهم حيث يضعون ضحاياهم ، ويسألون انفسهم ايصبرون لما يصبون على الناس من هذا العذاب الهادئ البطيء المتصل لو أن غيرهم صبه عليهم فى هدوء وبطء واتصال ، هذا الموظف فى وزارة المعارف الذى أراد ان يلحق طفلا من اطفاله بروضة من رياض الوزارة لينشأ مع اخويه فلم تكتف الوزارة بان ردت طفله الجديد ، ولكنها ألحقت به فى البيت اخويه اللذين اقاما فى الروضة عامين او أكثر من عامين ، ثم حولتهما بعد ذلك إلى روضة خيالية قد انشئت فى عقول الموظفين فى وزارة المعارف ولم تر الشمس إلا بعد وقت غير قصير ، وقد ذهب هذا الموظف باطفاله إلى روضتهم الجديدة البعيدة فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بهم فلم يجد شيئا ، ثم فتنش واستقصى . وسأل القاضى والدانى ، وسأل مكتب البريد فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بعد ذلك فوجد دارا مهدمة ليس فيها مرفق ولا أداة من أدوات التعليم والتربية واللعب ، ليس فيها طعام يؤكل ولا ماء يشرب ، فعاد باطفاله إلى داره

كثييا محزوننا كاسف البال ، وكان قد شكّا للوزير فلم يسمع الوزير له
اولم يعلم الوزير بانه قد شكّا إليه .

وقد جعل كل ما اصبحت رأى اطفاله يبكون ، لان سيارة الوزارة التي
كانت تحملهم إلى الروضة في الأعوام الماضية تمر بهم مصبحة ممسية
فلا تغدو بهم على الروضة ولا تروح بهم منها ، وإنما تمر بهم ساخرة
منهم مزدرية لهم تحمل اترابهم فرحين مرجين يبتسمون للصبيح المشرق
الذى يسوقهم إلى المدرسة ، وابتسمون للنهار المبصر الذى يردهم إلى
دورهم ، وهؤلاء الاطفال البائسون يرون سيارتهم ويرون اترابهم دون
أن يستطيعوا ركوب السيارة او مشاركة الاتراب فى ابتسامات الغدو
او ابتسامات الرواح .

رأى هذا الموظف اطفاله على هذه الحال ، وذاق هذا الموظف مع
اطفاله مرارة الحرمان وقسوة هذا العذاب ، وقد أراد سوء حظه وسوء
حظهم أن يكون هؤلاء الاطفال اليتامى قد فقدوا اهمهم كما كان هو مترملا
قد فقد زوجته ، وكان هذا الموظف يجد فى تربية اطفاله وتنشئتهم من
العزاء عن فقد زوجته ، وكان معتقدا انه يرضى نفس امراته كلما نجح
فى العناية باطفاله وفى تربيتهم لانه يؤدى لهم ما كانت خليفة أن
تؤديه لو اتيح لها البقاء . فلما اودى الاطفال فى تعليمهم وفى لعبهم ،
ولما اودى الأب فى تربية اطفاله وتنشئتهم ولما رأى الأب دموع اطفاله
مع الصبح ودموع اطفاله مع المساء وضجر اطفاله اثناء النهار
لم يستطع على ذلك صبرا ، ولم يملك نفسه ، فشكا فى الصحف لعل
الوزير يقرأ شكاته فيمسح بدموعه من الإنصاف ويمس اطفاله بشيء من
العطف ويرد إليهم وإليه حقهم من العدل الذى كلف أن يشيعه بين
الناس .

شكا ولكن الوزير لم ينصفه ولم يعطف على اطفاله ولم يرد إليهم
ولا إليه قليلا من العدل ولا كثيرا ، لم يفكر فى الأب الأرمل ولا فى الأم
الميتة ولا فى الاطفال الصغار اليتامى ، وإنما فكر فى الموظف الذى
نقد الوزارة فى الصحف ورأى أن هذا النقد اثم فى ذات الحكومة وأن
القانون يعاقب عليه .

باللغول الواسعة . بالقلوب الرحيمة . بالطباع المهذبة .
باللذواق المصفاة . أما الأبوة البائسة وأما الطفولة التعسة فلا يحفل
بها الوزراء ولا يلتفتون إليها ولا يقفون عندها ، لانهم ان فعلوا ذلك
كانوا رحماء ، والرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول محمد ابن
عبد الملك الزيات .

وأما ان يلفت موظف وزارة المعارف إلى واجبها ويدلها على خطئها
ويدعوها إلى إصلاح هذا الخطأ فهذا هو الاثم كل الاثم ، والإجرام كل
الإجرام ، وهو التقصير في ذات القانون وهو الخروج على النظام ،
والسكوت على هذا ضعف أى ضعف ، والعقاب على هذا كله عدل أى
عدل وحزم أى حزم . الا بعدا للعدالة والحزم إن كانت غايتهما إهدار
أبوة الأباء وبنوة الأبناء ، وتضييع ما للناس على الدولة من حق
وإلغاء ما على الدولة للناس من واجبات .

إساء الموظف إذن إلى الدولة في رأى الوزير فيجب أن يعاقب فاما
إساءة الوزير إلى الأمة في أشخاص هؤلاء الأطفال الصغار فيجب أن
تذهب هدرا ، كذلك يريد العدل المصنوع . وقد حقق مع هذا الموظف
فألقيت عليه أسئلة صريحة أجاب عليها إجابة صريحة وكان من الممكن
أن يقرأ الوزير وأن يقدر أبوة هذا الأب البائس ، وبنوة هؤلاء الأبناء
البائسين ، ولكن الوزير لم يقدر أبوة ولا بنوة ، وإنما قدر أن الحكومة
قد أسىء إليها فيجب أن تنتقم من المسىء ، فأصدر أمره بنقل هذا
الموظف إلى الصعيد الأعلى ، هناك حيث لا توجد رياض للأطفال ،
وحيث لا يجد هؤلاء الأطفال الذين نشئوا في القاهرة ما يلائم حياتهم
الهائلة المتواضعة ، ولو أن هؤلاء الأطفال أما ترعاهم لسافر أبوهم
إلى الصعيد الأعلى جادا كادا ملتئسا له ولهم أسباب الرزق ، ولكن
الأطفال يتامى لا يعولهم إلا أبوهم ولا يستطيع أن يعولهم في الصعيد
الأعلى ، فطلب الموظف إلى الوزير أن يعفيه من هذا النقل ليرعى
اطفاله ويقوم منهم مقام الأب والأم جميعا .

ولكن الوزير لم يفكر في الأبوة البائسة ولا في الطفولة البائسة
ولا في الأمومة التي ذهبت بها الأقدار وإنما فكر في أن وزارة المعارف

قد نسيء إليها فيجب أن تنتقم من المسيء .

ولذلك أبى الوزير أن يقبل عذر هذا الأب البائس ، وحدد له موعدا يصل فيه إلى الصعيد الأعلى ، ونظر الموظف فإذا هو مخير بين أمرين أحلامهما مر وإيسرهما نكر ، فاما أن يرضى الوزير فيجحد حق ابنائه عليه ويجحد حق امراته عليه أيضا ، حق امراته الميتة التي لا يمكن استرضائها ولا الاعتذار إليها ، واما أن ينهض بحق ابنائه وحق زوجته وحق أبوته فيغضب الوزير وفي غضب الوزير ضياع المنصب وانقطاع المرتب وتعرض الأطفال الصغار للجوع والحرمان .

وقد اختار الموظف فارضى حق الأبوة والبنوة والأمومة واحترام الوزير أيضا بين الرحمة التي أودعها الله في النفوس والعدل الذي صنعه الناس صناعة ، فترك الرحمة التي نشرها الله وأثر العدل الذي صنعه الناس ، وأحال الموظف إلى مجلس التأديب ووقفه عن العمل وقطع مرتبه .

وقد قلت لك اننا بلغنا من الترف في الانتقام والافتتان في حب العذاب الهادئ المتصل البطيء ما لم يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات . ففي اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر أرسلت الوزارة إلى البنك كتابا تأمره فيه ألا يصرف لهذا الموظف مرتبه عن شهر أكتوبر وعلم الموظف ذلك من البنك نفسه لا من الوزارة ، وذهب إلى الوزارة في اليوم الأخير من شهر أكتوبر يسأل عن هذا القرار فقيل له أنه صدر ولكنه لم يطبع بعد . ومعنى ذلك أن البنك قد عرف القرار قبل أن يعرفه الموظف . ومعنى ذلك أن هذا الموظف ذهب في آخر الشهر لبتقاضى مرتبه فلم يجد شيئا ولم يكن قد عرف من أمر القرار شيئا . ومعنى ذلك أن هذا الموظف عاد إلى بيته في ذلك اليوم صفر اليد مما تعود أن يوسع به عليهم ، وأن يرزقهم منه رزقهم حين يصبحون وحين يمسون . ومعنى ذلك أن هذا الموظف لم يعاقب في نفسه وحدها ، وإنما عوقب في أطفاله الصغار . ومعنى ذلك أن هذا الموظف لم يعاقب وحده ، وإنما عوقب معه أطفال أرباء أكبرهم في السادسة وأصغرهم في الثالثة . لأن هذا الموظف نقد الوزارة في الصحف . ومعنى ذلك أن

الوزارة أكرم على نفسها من أبوة الآباء وبنوة الأبناء ، وحق اليتامي
لافى أن يتعلموا بل فى أن يعيشوا .

هذا هو العدل الذى صنعه الناس والذى تقوم عليه قوة الحكومات .
فاما الرحمة التى خلقها الله ، فأما العدل الذى أراد الله أن ينشر فى
الأرض ، فأمران لا يثبتان لما ينبغى لوزارة المعارف من كرامة فى
نفوس الموظفين . والغريب أن وزير المعارف أب وأن ما أجراه على
هذا الموظف يمكن أن يجريه عليه طاغية من الطغاة فى يوم من الأيام ،
والغريب أن لوزير المعارف اعوانا كلهم أب ، وكلهم يعرف حق الأبوة
وحق البنوة وما ينبغى للأطفال الصغار اليتامي من رعاية وعناية
وحماية من الآفات .

كل هذا غريب حقا لأن التسلط يعمى البصائر والأبصار عن حقوق
الأبوة والبنوة ، ولأن التسلط يملأ النفوس غرورا وفنونا وتكبيرا
وتجبيرا ، ويرتفع بها عن الرحمة التى هى خور فى الطبيعة كما كان
يقول محمد بن عبد الملك الزيات .

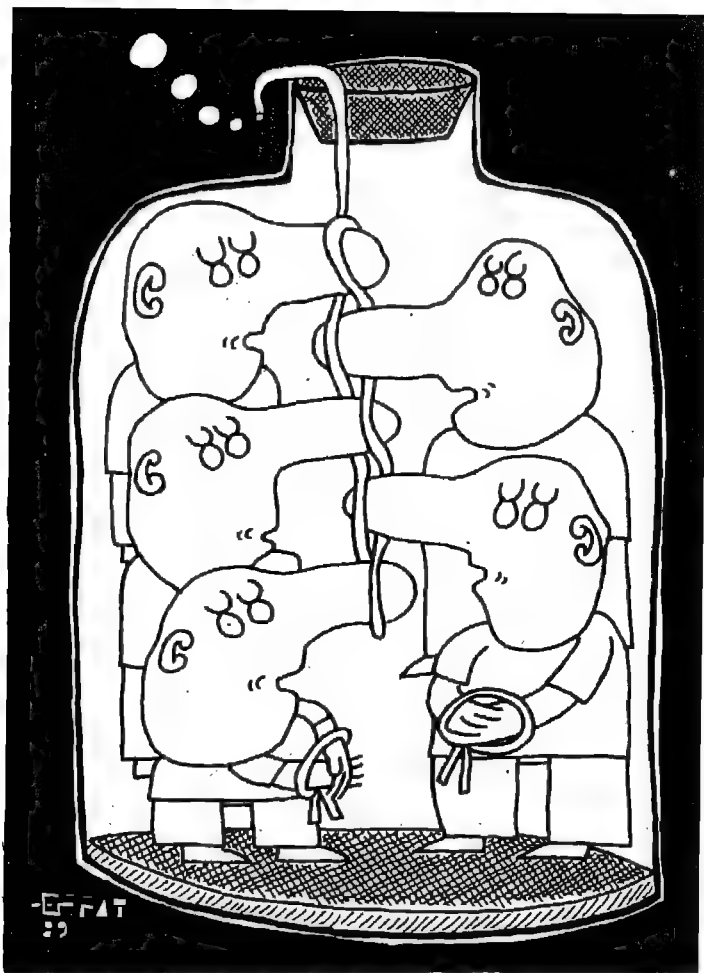
أى العذابين أشد نكرا ! عذاب التنور الذى أشرعت فيه المسامير
المذبذبة والذى يالم فيه المعذب أياما ثم يموت ، أم هذا العذاب الرقيق
الرفيق الرشيق الهادئ المتصل البطيء الذى لا يرى ولا تحس آثاره
ولكنه يفتنى النفوس شيئا فشيئا ، ويعلم الأطفال أن الحرمان قد يؤذى ،
وأن الظلم قد يملأ النفوس بأسا ، وأن الجوع قد يكون كرية المذاق .
أى العذابين أشد نكرا ، هذا العذاب الذى كان يصبه محمد ابن
عبد الملك الزيات على الأجسام حتى تهلك ، أم هذا العذاب الذى يصب
فى هذه الأيام على النفوس فيعرضها لفقدان الكرامة وللشعور بالذلة
وللاستخذاء أمام المتسلطين إلى هذا انتهت بنا الحضارة المترفة
ويقال بعد ذلك أن أخص ما يمتاز به العصر الحديث انه علم الناس أن
لهم ضمائر تحب الخير وتكره الشر ، وتندم حين تصيب الناس بما تكره
أن يصيبها الناس به .

ربما كان هذا حقا ، ولكن هذه الضمائر التى استكشفتها الإنسان فى
العصر الحديث تمتاز أيضا بالمرونة ، فهى قادرة على أن تتشكل

بما يقدم إليها من الأشكال ، وهى قادرة على أن تستدير مع الشمس ، وهى قادرة على أن تستقبل الريح من حيث تهب ، وهى قادرة على أن تلغى أبوة الآباء وبنوة الأبناء وامومة الأمهات وأن تكن فى غيابات القبور . وهى قادرة على أن تعرض الأطفال الصغار اليتامى للجهل والفقر والمرض والجوع ، لا لشيء إلا أن وزارة المعارف قد نقدت فى الصحف وهى أكرم من أن تنقد فى الصحف وان كان الناقدون آباء لا يعرفون كيف يعلمون أبناءهم .

معذرة أيها القارئ الكريم انى لأشعر أن فى هذا الحديث مرارة قد تؤذى نفسك وتؤلم قلبك ولكنك توافقنى فيما أظن على أن فى حياتنا أشياء أن رضىها ضمير الوزراء وأعوان الوزراء فلا ينبغي أن ترضاهم ضمائر الشعوب .





الشجاعة

لم تخطيء وصفه يا سيدتى ، فهو شجاع بأدق معانى هذه الكلمة واكملها واشملها ، ولكن بشرط أن تفهمى من الشجاع معنى غير هذا المعنى المألوف الذى ابتذله الناس فى ادبهم القديم والحديث . فليس فى صاحبنا من شجاعة الناس شىء ولعله أن يكون ابعدهم عنها وابراهيم منها ، وادناهم إلى الخوف الذى يخلع القلوب ، والهلع الذى يقصد المروءة ، والجزع الذى تطير له النفوس شعاعا . وآية ذلك انه حريص اشد الحرص على أن يرضى كل إنسان مشفق اشد الإشفاق من أن يغضب أى إنسان ، لا يحرص على أن يرضى الجماعات أيضا . ولعل حرصه على إرضاء الجماعات أن يكون اشد من حرصه على إرضاء الأفراد ، ولا سيما حين يكون لهذه الجماعات من القوة حظ قليل او كثير وحين يكون بينها وبين السلطان سبب طويل او قصير . والامر عنده فى إرضاء الأفراد والجماعات يدور على ما يرجو من منفعة وما يخشى من مضرة فهو حينما رجا المنفعة عظيمة كانت او يسيرة ، حلو الشوائل سمح الأخلاق سهل المراس ، لين العريكة ، مهذب الطبع ، مثقف الذوق ، عذب الحديث ، وهو على نقائص هذه الخصال كلها إذا لم يرج نفعا ولم يخش ضررا ، فيه ماشاء الله من شراسة الطبع وجفوة الخلق وغلظة الذوق وانحراف المزاج ، وسوء العشرة ، وصعوبة المراس وخشونة الحديث .

وأنتك توافقننى ياسيدتى على أن شيئاً من هذه الخصال لا يلائم
أخلاق الرجل الشجاع . فالشجاع لا يقيم امره على الرياء ولا يجرى
حياته على المصانعة ، ولا يلين حين تجب الشدة ولا يشتد حين
يحسن اللين .

والشجاع بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لا يسرف فى إثارة نفسه
بالخير ولا يضحى فى سبيل هذا الإثارة بما يجعل الرجل الكريم رجلاً
كريماً . ومع ذلك فصاحبنا شجاع بشرط أن تفهمى الشجاع كما أراد أن
يفهمه الشاعر القديم حين قال :

وأطرت أطراق الشجاع ولو يرى مساعاً لنايه الشجاع لصمما
فالشجاع هنا اسم لا وصف ، وهو لا يدل على الرجل الذى يصبر
نفسه على المكروه ويجشمها الهول فى سبيل ما يتم مروءته ويكمل
رجولته ، ويرفع منزلته ويجعله ممتازاً بين الممتازين الذين يستحقون
الامتياز ، ولا يغضبونه غضباً وإنما يدل على الحية التى تستخفى فى
جحرها لا تكاد تظهر منه إلا رأسها الدقيق وتظل على حالها هذه
مستخفية مطرقة ، حتى إذا مكنتها الفرصة ووجدت مساعاً لنايها
لم تضيعها وإنما عضت فصعمت كما يقول هذا الشاعر وبلغت من
عضتها وتصميمها ما تريد .

وهذه الحية أو هذا الشجاع لا يستخفى فى الجحر دائماً ولكنه
يستخفى فى رجال الصحراء ويستخفى بين الصخور الغلاظ ويندس فى
الفراش الوثيرة ، وهو سارِب بالليل وسارِب بالنهار يحسبه من يراه
هادئاً كل الهدوء مضمئناً كل الاطمئنان ولا يكاد يقدر أن على أحد منه
باساً لولا أن الإنسان قد عرف أخلاقه منذ أقدم العصور ، ولكن هدوء
الهادئ لا يفر الناس عنه واطمئنان المطمئن لا ينسى الناس ما بلوا
من أخلاقه وهذا هو الفرق الوحيد بين الشجاع الذى نتحدث عنه
والشجاع الذى ذكره الشاعر القديم . معروفاً الذى ينتظر الشر قد
تواصى الناس بيفضه وخوفه واجتنابه منذ عرفت . وأما الشجاع
الذى نتحدث عنه فإنه رجل مثلنا يشاركنا فى كثير من صفات الناس
ويضطرب معنا فى كثير مما نضطرب فيه من شؤون الحياة ، وهو من

اجل ذلك يخدعنا عن نفسه وامله ان يخدع نفسه عن نفسه أيضا ولست ادري ايهما شر ، شجاع الحيات الذى لا يراه الناس إلا فرعوا منه واتقوا شره او شجاع الناس الذى نراه فنطمئن إليه ونصل أسبابنا بأسبابه ونقدم إليه المعروف وننتظر ان يقدم إلينا المعروف او الا يصيبنا منه مكروه على أقل تقدير .

وقد زعم بعض الناس للجاحظ ان من الحيات ما له راسان ، وزعم بعض الاعراب للجاحظ انه رأى هذا الصنف من اصناف الشجعان ، فلما ساله الجاحظ باى الراسين يسعى وبأيهما يطعم قال انه يفطر باحد راسيه ويتغذى باحدهما الآخر ويسعى بهما جميعا .. قال الجاحظ وهذا من اكذب الكذب . ومن الجائز ان يكون الاعرابى قد كذب على الجاحظ فى وصفه لشجاع الحيات ولكن من المحقق أن شجاعنا الانسى راسين وانه يفطر باحدهما ويتغذى باحدهما الآخر . او قولى ان شئت ياسيدتى ان له لونين من ألوان الغذاء وقد خصص لكل لون منهما راسا من راسيه هذين فله غذاء مادي ياتلف من هذا المال الذى يجمعه شيئا فشيئا ويحصله قليلا قليلا ، ويضم بعضه إلى بعض فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، وله غذاء معنوى يمازجه شيء من المادة هو هذه الدرجات التى تسعى لها منذ اتصلت اسبابه بأسباب العمل فى الدواوين ، فهو يلتمسها فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، كما يلتمس غذاءه المادى ذاك . وما أكثر الذين يتاح لهم ان يعملوا فى دواوين الحكومة او غيرها من مكاتب الأعمال العامة ، ويعنون مع ذلك بجمع المال وتدبير الثروة والاستكثار مما يتيح لهم الغنى ويملا أيديهم من حطام الدنيا ، ولكن المهم الذى يمتاز به صاحبنا ويشبه به الشجاع شيئا قويا ، والشجاع ذا الراسين ، هو طريقته فى جمع المال وتدبير الثروة ، وطريقته فى التماس المناصب وابتغاء الوسائل إلى الرقى فى درجاتها المختلفة . فهو لا يسعى فى ذلك كما يسعى الناس ، وإنما يأتى له كما يأتى الشجاع للفرصة التى يعمل فيها نأبيه وينفث فيها سمه الناقع .

وقد زعم بعض الصقالبة للجاحظ أيضا أن من الحيات ما يلتف على البقرة الحلوب التفافا حتى يبلغ ضرعها فيرتضعه في شربه وما يزال يشرب ما فيه من لبن حتى يمتلىء وينتفخ ويتراخي . وإذا هو يترك البقرة ويستلقى سكران من كثرة ما شرب ولكنه قد اضطر فريسته إلى الهلاك .

وكذلك يفعل صاحبنا في جمعه للمال حين يجمعه وفي التماسه للمنصب حين يلتصقه ، يرى الفريسة أمامه فينظر إليها ويصل بها نفسه وقلبه وعقله ، ثم يثب إليها حين تمكنه الفرصة ثم يلتف عليها وما يزال يمتصها امتصاصا ويرتضعها ارتضاعا حتى ياتي على آخر ما عندها . أورثته أسرته ثروة متواضعة ليست بذات غناء ولكنه لم يقنع بها . ومتى قنع الناس بما يتاح لهم من اعراض الدنيا ، لم يقنع بها وإنما طمع في تنميتها ، وفي تنميتها على حساب جيرانه وخلانه وذوى مودته ، والذين كانت بينهم وبين أسرته صلات المحبة والالفة وحسن الجوار ، فاطرق أطراق الشجاع ، وجعل ينتهز الفرصة حين تسنح ويتربص الدائرة حين تدور ويرقب النائبة حين تنوب . فلا تزال عينه ناظرة إلى ما حوله من أرض جيرانه ولا تزال نفسه متصلة بها حتى تعرض حاجة جار من جيرانه إلى بعض المعونة إلى ما يحتاج إليه صاحب الأرض من هذا القرض الذي يؤدي به الحق حين يلزم ، ويدفع به الخطب حين يلم . هنالك يرفع الشجاع رأسه من أطراقه ، وهنالك يكون الاطماع ويكون الامتناع ، وهنالك يكون الدنو ويكون النأي ، وهنالك يكون القرب ويكون الهجر والحاجة ملحة على جاره ولعله أن يشارك في جعل هذه الحاجة ملحة مشددة في الإلحاح ، وما يزال بجاره يبدي له المال ويخفيه عنه حتى إذا وجد مساعدا لنابيه أدى المال وأخذ مكانه رهنا مقبوضا .

وكذلك أنفق حياة طويلة يداعب جيرانه هذه المداعبة المرة ويلاعبهم هذه الملاعبة البغيضة ، حتى ضم أرضهم إلى أرضه ومالهم إلى ماله وحتى ردهم فقراء بعد غنى وأشقياء بعد سعادة ومحتاجين إلى الرفق والعطف بعد أن كانوا يبذلون الرفق والعطف ، وإذا هو

سيدهم ، وقد كان واحدا منهم . وإذا هم يدينون له بالطاعة ويلجأون إليه عند الملمات ، ويعملون في أرض كانت لهم فأصبحت له وأصبحوا هم لها وله في وقت واحد .

وإذا هو يستكبر ويستعلى ويطغى ويبغى ويشق على من كانوا له أكفاء فأصبحوا له أجراء . وكذلك عمل أحد هذين الراسين في الازدراء والالتهام لكل ما كان حوله من المال والثراء ينتهز الفرصة كلما سنحت ويخلقها إذا لم تسنح ويبذل الحيلة كل الحيلة في خلقها وابتكارها ان امتنعت عليه . وهو على هذا كله هادىء وادع مطمئن يشيع في قلوب الذين يروونه أمنا وانسا ودعة ورققا ، حتى إذا عضهم بنابيه عرفوا كيف تكون مساورة الحيات . ولو كان لهم حظ من ثقافة أو ادب لانشد كل واحد منهم قول النابغة :

فبت كاتى سلورتنى ضئيلة من الرقش فى انيابها السم ناقع
وأما راسه الثانى فيعمل فى القاهرة ، يستقر فى مكتب من المكاتب وفى ديوان من الدواوين كما يستقر الشجاع فى جحره أو يطرق كما يطرق الشجاع فى كتيب من رمال الصحراء ، يسعى هادئا كما يسعى النسيم ، وينساب رقيقا كما ينساب ماء البنبوع ، وهو على ذلك حذر مكر يرقب الفرصة ويسعى بالكيد ، ويفرق بين الصديق ويفرى بالزميل حتى إذا أمكنت الفرصة ووجد مساعا لنابيه صمم واحسن التصميم ووثب إلى فريسته فانطوى عليها كما ينطوى شجاع الجاحظ على البقرة الحلوب ، وما يزال يمتص فريسته حتى يأتى على آخر ما عنده . وإذا هو قد ارتقى من منصب إلى منصب ، ووثب من درجة إلى درجة وقفز من مرتبة إلى مرتبة ، وإذا الذين كانوا له رفاقا وزملاء قد أصبحوا له مرؤوسين يجدون فى طاعته ويصدرون عن أمره ، وقد ملا الجو من حوله مكر وكيدا وخبثا ودهاء ونفث السم فى البيئة كلها كما ينفث الشجاع سمه فى الفريسة حين يظفر بها .

وأخص ما يمتاز به الشجاع انه على ما يظهر من لينه ورخاوته وتهالكه ومرونة جسمه شديد الأيد لا يعيا بشيء ، وأقوى ما فيه انيابه ومعدته . فانيابه لا يعيبها شيء ومعدته لا يعجزها قضم . وهو من

أجل ذلك لا يتعب ولا يبيلغه الجهد مهما يحاول من أمر ومهما يتكلف من مشقة . وهو من أجل ذلك لا يرضى مهما حقق من أمل ولا يقنع مهما يبلغ من أرب ، وهو لا يمضغ دائما ولكنه يمضغ حيناً ويزدرد أحيانا ويهضم على كل حال . وأمر صاحبنا كامر الشجاع فى هذا كله ، فرأسه العامل فى القرية لا يطرق إلا ليثب . ورأسه العامل فى القاهرة لا يطمئن إلا ليثور ، ومعدته مضطربة دائما بهذا الهضم المتصل الذى لا يذر شيئا أتى عليه إلا جعله كالرميم .

وللشجاع صغير يؤذى وفحيح يخيف ، ولو قد سمعت صاحبنا ياسيدتى حين يعبث به الطمع ويحركه الإغراء وتدعوه الفريسة إلى القضم والهضم ، لسمعت صياحا منكرا وجئرا بشعا ليس أقل نكرا ولا بشاعة مما يبعثه الشجاع حين يتهيا للوثوب من صغير وفحيح . وليس لشجاع الحيات منزل يختاره ويؤسسه ويؤثر المقام فيه وإنما هو ساع دائما يأوى إلى حيث يحب أن يأوى ويغير حيث يحب أن يغير ، وهو من أجل ذلك شائع الأذى متصل الشر منتشر العدوان ، وصاحبنا يشارك الشجاع فى هذه الخصلة كما يشاركه فى غيرها من الخصال ، فهو لا يؤثر مالا بعينه ولا يؤثر عملا بعينه ولا يؤثر صديقا بعينه ولا يؤثر عدوا بعينه ، وإنما المال كله صالح للجمع وتوفير الثراء ، والعمل كله صالح لنيل المناصب وارتقاء الدرجات والناس كلهم له صديق والناس كلهم له عدو ، وهو قادر على أن يندس فى كل مكان ويحصل فى كل مجلس ، ويتساب فى كل ناد ويقول فى كل شيء ويكتب فى كل موضوع وينفث السم حيث يتاح له أن ينفث السم . أى حيث يتاح له أن يتنفس . فالهواء كله قد سخر له يودعه سمه فينقله حيث يسعى النسيم وحيث تجرى الرياح عاصفة أو رخاء .

ولشجاع الحيات المصرية شهرة ذائعة وأحاديث شائعة وذكر قديم وصوت بعيد . وعهد مصر كما تعرفين بالحيات قديم ذكرت مع فرعون فى الكتب المنزلة وظهرت مع فرعون فى النقوش والآثار ، ولكن عهد مصر بالشجاعان الانسية قريب فيما يظهر ، وهو على قربة خصب بعيد الأثر ، فقد كثرت شجاعان الناس فى مصر منذ اضطربت السياسة

وتلاحقت الخطوب ومكر بعض الناس ببعض وكاد بعض الناس لبعض ، وتوشك مصر أن تعرف بشجعان الناس كما عرفت بشجعان الحيات .

قالت السيدة متضاحكة وكانت أريية . حسبك فقد روعتني وأخشى أن تكون قد روعت نفسك ، فاذاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعوذ بالله من أن يتخبطه الشيطان عند الموت ومن أن يموت في سبيله مدبراً ومن أن يموت لديغا .





سمير الليل

لا تكلف نفسك مشقة ولا جهدا فلن يتاح لك حل
هذا اللغز بالمشقة والجهد ولا بالروية المتصلة
والتفكير الطويل . وليس مصدر ذلك ان هذا اللغز
عسير الحل ، ولا أن الطريق إلى حله ملتوية
متشعبة يوشك سالكها أن يجور فيها عن قصد
السبيل ، بل مصدر ذلك ان هذا اللغز يسير جدا
ايسر مما تقدر وأقرب إلى الحل مما تظن ، وأن الطريق إلى فهمه قصيرة
مستقيمة لا طول فيها ولا التواء . فأنت ترى صاحبنا أعجوبة من
اعاجيب الدهر وغريبة من غرائب الزمان . تجلس إليه فلا تكاد تسمع
منه صوابا ولا تكاد تفهم عنه شيئا ، وتحدث إليه فلا يفهم عنك
إلا أيسر ما تقول ولا يكاد يرد عليك رجع الحديث حتى يأخذك شيء من
العجب لانك لا تدري أنتحدث إلى عاقل أم تتحدث إلى مجنون .
وانت تنظر إلى جسمه هذا الذي يمتد عن يمين وشمال ، ومن وراء
وأمام ولا يكاد يرتفع في الجو إلا قليلا ، ولا يكاد يجد من الناس
وكراسيهم ما يسعه كما يسع غيره من الناس ، فيخيل إليك ان هذا
اللحم المتراكب والشحم المتراكم قد ألقى بين نفسه وبين العالم حجابا
صفاقا واستارا كثافا .. فهي لا تكاد تحس من العالم شيئا والعالم
لا يكاد يبلغها إلا بعد عناء شديد ، وأنت تنظر إلى وجهه الضخم الجهم
فترى على شفثيه الغليظتين ابتسامة تدل على البله والغفلة أكثر
مما تصور الغفلة والذكاء ، وترى أنفا ضئيلا قد كاد يغرق فيما يكتنفه
من لحم خديه ، وجعل النفس يتردد فيه محتبسا مختنقا يسمع له
صوت ثقيل بغيض . وترى جبهة ضيقة بارزة قد انبسط فوقها رأس
مفرطح عريض قل فيه الشعر وأخذ فيه الصلع ، وجعلت تبدو من خلاله
رقع ضيقة جرداء حتى انكره وكره أن يكشف رأسه إلا قليلا

وترى عينين مغمضتين كأن صاحبهما نائم مغرق في النوم فإذا أراد أن ينظر إلى شيء أمامه ، أو إلى إنسان بين يديه ، رفع جفنين متكسرين ورفعهما في شيء من الجهد فبدت من دونهما عينان صغيرتان منطفئتان لا تصوران يقظة ولا نشاطا ولا ذكاء ، وإنما تصوران نوما وخمولا وغباء شديدا ، فإذا استمعت له وهو يتحدث اضطرت أن تجهد أذنك لينقل عنه الصوت إليك لأنه يتكلم في صوت ليس بالنعيل ولا بالضئيل ولكنه مع ذلك ليس بالقوى ولا بالمرتفع ؟ وإنما هو صوت وسط بين ذلك مطرد منكسر أشبه شيء بالماء الفاتر يريد أن يجري جريانا سواء فتعترضه عقبات يسيرة جدا يتغلب عليها وينشأ عن ذلك فيه تهدج وانحطام بين حين وحين ، فمناظره يؤذيك والاستماع له يضرنيك والفهم عنه يشق عليك والوصول إلى نفسه يرهقك من أمرك عسرا . والحكم الذي تكوته في نفسك حين تقبل عليه أو تنصرف عنه هو أنه غلطة من غلطات الطبيعة وغلطة من فلتات الدهر ، وهم من أوهام الظروف . كأنما أريد به إلى أن يكون حيوانا من هذه الحيوانات الضخمة ذات الخلق المرتبك والشكل الذي لا يروق ، ثم عدل به في اللحظة الأخيرة إلى شكل الإنسان فلم يحسن تقويمه ، ولم يعتدل قدمه ، ولم يتسق شكله ، ولم ينفخ فيه من الروح الإنساني العاقل إلا جزء ضئيل ؟ .

كذلك تحكم عليه حين تلقاه وكذلك تحكم عليه حين تفارقه لولا أنك مضطر إلى أن تنكر هذا الحكم إنكارا وترفضه رفضا وتعترف كما اعترف بأن له حظا عظيما من الذكاء والفطنة ، وبأنه يدبر أمره في حياته الخاصة والعامة تدبير المستبصرين أولى الذكاء النافذ والذهن المتوقد والعقل الذي لا يعبأ بالمشكلات ولا يرتد عن معضلات الأمور . وأنت حائر كل الحيرة في هذا التناقض بين ما يظهر من شكله ومن عقله ، وبين ما يصدر عنه من الأعمال والأقوال التي لا تصدر عن غفلة ولا عن غباء .

ومصدر هذا التناقض الذي تضيق به وتراه لغزا معضلا وتريد أن تلتمس له الحل فلا تجد إلى حله سبيلا ، أنك لم تعرفه كما أعرفه ،

ولم تظهر من أمره على ما أظهر عليه . فصاحبنا أعجوبة من غير شك ، ولكنها أعجوبة لا تكاد تثبت لمن يعرفه حق معرفته . وسبيل ذلك أن صاحبه يوماً كاملاً ، يوماً ياتلف من النهار والليل . فالنهار وحده لا يفسره والليل وحده لا يجلوه ولا يد من أن يتعاون هذان الفرسان اللذان يستبقان دائماً ولا يستطيعان أن يجتمعا في مستقر واحد ، لا بد من أن يتعاون هذان الفرسان على تفسير غامضه وتجليه أمره لانهما قد اقتسما نفسه اقتساماً كاملاً .

· فللنهار منه نصيب لا يعرفه الليل ، وللليل منه نصيب لا يبيلوه النهار ، واية ذلك ان عين الفجر لم تره قط إلا مغرقاً في نوم ثقيل او غارقاً في سكر عميق ، وان عين الضحى المشرق لم تره قط إلا يقظان الجسم نائم النفس . وان صدر الليل لم يره قط إلا مرحاً فرحاً خفيفاً رشيقياً كأنه لا يحمل هذا الجسم الضخم الثقيل وإنما يحمل جسماً قد صور من الهواء ، فهو لا يسكن إلا ليتحرك ، ولا يستقر إلا ليضرب ولا يسكت إلا ليتكلم . وهو لا يتكلم بهذا الصوت الفاتر المتكسر ، وإنما يتكلم بصوت مرتفع عريض يملأ الفضاء ويسمع من بعيد ، وهو لا يجد مشقة ولا جهداً في رفع جفنيه ، ولا في التنفس من أنفه الدقيق الضئيل ، وابتسامته تلك الغافلة البلهاء تستحيل إلى ابتسامة أخرى فيها كثير جداً من الفطنة وفيها كثير جداً من الذكاء .

وهو على كل حال ليس نائماً إذا جنه الليل وإنما هو أبعد الناس عن النوم وأعظمهم حقلاً من اليقظة ، بل قل أنه يقظة كله ، يقظة لا تنام ولا تنيم ، وإنما توقظ الناس من جوله ولعلها تزعجهم إزعاجاً ، فهو حياة نائرة فائرة ، وهو حركة هائجة ، وهو تفكير متصل لا يعرف الانقطاع ، وكلام مستمر لا يعرف الوقوف .

فله نفسان ، نفس قد صحبت النهار تنام فيه وتؤذن الناس بأنها مستيقظة ، ونفس قد صحبت الليل ، تسهد فيه وتخيل إلى الذين لا يالفونه أنها نائمة . وكل ما يصدر عنه من الأعمال التي تصور الذكاء ومن هذه الأقوال التي تصور الفطنة إنما هو من وحى نفسه المستيقظة في الليل ، تقدره وتدبره ثم تهينه وتدخره لنفسه النهارية النائمة فيصدر عنها كما تصدر الأحلام عن النائمين .

ولم يكن هذا حاله منذ مارس حياة الرجال وإنما طراً عليه قليلا قليلا .
كما تطرأ بعض العلل على بعض المرضى . فقد كان فى المدرسة
الثانوية وأثناء الدراسة الجامعية فى مصر وفى أوربا فتى كغيره من
الفتيان يشارك أترابه فى الدرس ويشاركهم فى العبث والمرح ، ولكنه
يمعن فى الدرس أكثر مما كانوا يمعنون ويبلغ من النجاح أكثر مما كانوا
يبلغون . فإذا أقبلوا على مرحهم استوفى منه حظا أعظم من
حظوظهم ، والح فيه إلحاحا كثيرا ما كانوا ينكرونه عليه ويلومونه
فيه ، فلم يكن يلقي لومهم إلا بالسخرية ولم يكن يستقبل أعراضهم
إلا بالازدراء .

وماله لا يفعل ذلك وإسرافه على نفسه فى اللهو لا يقصر به عن
إتقان الدرس والتفوق على أترابه فيه . وما الذى يمنعه أن يعطى نفسه
من لذة العقل أعظم حظ ممكن ، وأن يعطى جسمه من لذة الحس أكبر
قسط مستطاع . ولماذا ينصف نفسه بما يتيح لها من لذة العلم
والمعرفة ، ويظلم جسمه بحرمانه لذة العبث والمجون ، وكذلك أنشأ
لنفسه فلسفة خاصة لأمت خيائه فى أوربا ملاءمة ما ولكنها لم تلائم
حياته فى مصر . فلأوضاع الاجتماعية فى مصر خصائصها التى تفرض
على الناس ، ولا سيما حين يشغلون المناصب ويرضون الرؤساء
ويرقون رقيا سريعا ، ألوانا من الوقار وضروبا من الاحتشام تضطربهم
إلى شيء من الجد والحرمان إن كانوا أصحاب عبث ومجون .

ومن أجل ذلك ضاق صاحبنا بالحياة أول الأمر ضيقا شديدا انتهى به
إلى سام شديد ، وكاد ينتهى به إلى يأس مظلم ، فقد رأى أبواب العلم
والمعرفة والدرس والبحث مفتحة له على مصاريعها . ورأى فرص
اللهو والعبث نادرة ووسائلهما محدودة وأبوابهما لا تكاد تفتح
إلا قليلا ، ولا تكاد تفتح إلا لتغلق ، فإذا هم أن يلج منها إلى ما يريد
اضطر إلى كثير من الحذر والاحتياط لأن الأوضاع الاجتماعية فى ذلك
الوقت كانت تفرض الحذر والاحتياط ، وقد هم أن يرضى نفسه ويهمل
حسه وأن يمعن فى لذة العلم ويزهد فى لذة الاثم ، ولكنه لم يلبث أن

أنس من نفسه زهدا فى المعرفة وانصرافا عن الدرس وفتورا عن البحث والدرس . ونظر فإذا هو يوشك أن يكون موظفا كغيره من الموظفين الذين يضطربون من حوله خاملين لا يضيقون بالخمود والخمول ، بل لا يشعرون بالخمود والخمول ، وإنما هم راضون عن انفسهم وعن حظوظهم ، قد اطمأنوا إلى الحياة واطمانت إليهم الحياة .

وكان صاحبنا أبعد الناس عن الرضى وأبغضهم للاطمئنان وأشدّهم طموحا إلى الرقى وطمعا فى الامتياز ، فلم يكد يفكر ويقرر حتى استيقن أن فلسفته تلك قد خلقت له وأنه خلق لها وأنها وحدها هي التي تستطيع أن تبلغه ما يريد من علو المنزلة وارتفاع المكانة ومادام لا يرضى بالقليل ولا يقنع بما يقنع به عامة الموظفين ولا يكفيه أن يخطو إلى الامتياز خطوات متتدة معتدلة وإنما يريد أن يخطف الطريق خطفا وينهبها نهبا ويأتى بما لم تستطعه الاوائل كما يقول ابو العلاء ، فلا بد من أن يلجأ إلى فلسفته فيحيا بها ويحيا لها .

وقد فعل فاعتزل الناس إلا قليلا ، جعل يلقاهم فى الديوان حين يغدو على عمله فى الديوان وجعل يلقاهم آخر النهار ان اضطرته الظروف إلى أن يلقاهم آخر النهار ، ولكنه جعل لا يكاد يستقبل الليل حتى يبتسم لظلمته المظلمة ابتساما مشرقا ، ويمد إليه يد الصديق ويفتح له قلب الخليل ويتحدث إليه كما يتحدث الحبيب إلى الحبيب . اتخذ الليل سميرا ونديما واتخذ الشراب سميرا ونديما واتخذ الكتاب سميرا ونديما أيضا فجعل كلما اقبل الليل خلا إليه وإلى كتابه وشرابه ففكر وقرا وكتب ، واحتسى بين ذلك الكأس اثر الكأس حتى إذا تولى الليل إلا اقله وكادت توالى نجمه تتغور كما يقول ابن ابي ربيعة ، أعرض عن الشراب كارها وانصرف عن الكتاب محرجا يضطره إلى هذا الانصراف وذلك الأعراض انه لا يستطيع أن يمسه الليل ولا أن يرد النهار ، وأن للقراءة والتفكير والشراب اثرا فى العقل والجسم جميعا فلا بد من الراحة بعد التعب ومن النوم بعد السهاد الطويل . فهو إذن يسعى يسعى المقيد فى الوحل كما يقول مسلم بن الوليد حتى يبلغ

سريره فيلقى نفسه عليه إلقاء ويستسلم للنوم استسلاما وما أكثر ما كان يقبل على السرير والنوم وهو يبغضهما أشد البغض ، ويمقتهما اقبح المقت ، ولكن لابد مما ليس منه بد . على أن النوم لا يلبث أن يطبق عليه طباقا ويضمه ضما عنيفا ثقبلا قصيرا أيضا .

فهو يستيقظ قبل أن يرتضع الضحى ويغدو على عمله كما تعرفه نائما أو كالنائم ممضافي هذا الذهول الغريب . وقد طالت تجربته لهذا النوع من الحياة أو لهذين النوعين المختلفين من الحياة حتى الفهما ألفا متصلا ، وأصبح لا يستطيع أن يحيا إلا كما نراه نحن في النهار ، كما يراه الله وقليل من الاخلاء في الليل .

على أن حياته هذه المختلفة لم تلبث إلا قليلا حتى ظهرت آثارها في رايه وعمله وسيرته مع الناس . فهو أذكى من أن يأمن السكر على أرائه وأعماله وأقواله فهو من أجل ذلك قد أساء الظن بنفسه فجعل لا يرى رايها إلا أطل التفكير فيه والتقليب له قبل أن يعلنه ، يتهم فيه ليله هذا السكران ويخشى أن يدفعه إلى غير الصواب . وهو لا يقدم على عمل إلا بعد التردد المتصل وبعد الاحجام الطويل ، وهو لا يقول قولا إلا بعد أن يزنه كما يزن الصيرفي دنائره بميزانه الحساس الدقيق . ثم جعل سوء ظنه بنفسه يقوى ويشد ويمتد حتى تناول الناس جميعا ، وإذا هو لا يصدقك إذا استمع إليك كما أنه لا يطمئن إلى ما تهدى إليه من قول أو عمل ، لأنه يتهم الناس جميعا فيما يقولون ويعملون كما يتهم نفسه في كل ما يعمل ويقول ، ويريد سوء حظه أو حسن حظه لا أدرى أن تبتم له الأيام ويستجيب له الحظ فيرقى ويرقى ويسرع إليه الثراء ، وإذا هو يشعر كما يشعر غيره من الناس بأنه في حاجة إلى أن يكون لنفسه أسرة ويؤسس لنفسه بيتا فيتخذ الزوج ولكنه لا ينعم بالزواج إلا أياما . فقد صرفته زوجته عن ندمائه . الليل والشراب والكتاب صرفته فانصرف أول الأمر ثم لم يلبث أن أدركه السام فجعل يرد نفسه إلى ندمائه هؤلاء شيئا فشيئا . وهو كلما رد من نفسه جزءا إلى ندمائه حرم زوجته هذا الجزء من نفسه فسعد هو وشقيت هي حتى إذا عادت نفسه كلها إلى ندمائه نعم بسعادته الكاملة

وشقيقت بحرمانها الكامل . وعاش الزوجان في دار واحدة ولكن كلا
منهما أصبح لصاحبه عدوا يظهر الحب ويضمّر البغض .
قلت لصاحبي حين بلغ هذا الموضع من حديثه أو تظن الأمور
تستقيم لهذا الكائن الغريب على هذا النحو الغريب من أنحاء الحياة ،
قال صاحبي : هيهات وكيف تستقيم الأمور لرجل يسامر ظلمة الليل التي
تعشى الأبصار وظلمة الخمر التي تغشى البصائر ، ألم انبئك بأن حبه
لهذه الظلمات قد أفسد عليه حياته الروحية ودفعه إلى الإسراف في
سوء الظن بنفسه وبالناس ، ومتى استقامت الأمور لمن يقيم حياته
على الإسراف في سوء الظن بنفسه وبالناس .





طيف

القي كل واحد منهما إلى صاحبه نظرة دهشة
 واجمة ، فيها كثير من هذه الغفلة الحائرة التي
 تنشأ من المفاجأة والتي تلم بالآمن المطمئن حين
 يفجاء من الأمر مالم يكن ينتظر ، بل مالم يكن
 يخطر له ببال ، وكانت النظرة التي القاها كل
 منهما إلى صاحبه خاطفة أول الأمر ، ولكنها عادت
 فطالت واستقرت شيئاً ما ، ولزمت مع ذلك صمتاً ، ان صور شيئاً فأنما
 يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الحيرة على العقل فلا يفكر ، وعلى
 القلب فلا يشعر ، وعلى اللسان فلا يقول .

وقد لبث كل منهما بإزاء صاحبه ذاهلاً غافلاً لا يعرف ماذا يصنع
 ولا يدري كيف يقول ، ولو قد عرض لهما هذا اللقاء المفاجيء لاصابتهما
 الحيرة وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ولتهدأ آخر الأمر إلى مخرج من هذه
 الحيرة بكلمة تنفجر عنها الشفاة ، أو ضحكة تنفجر لها الأفواه ،
 ولكنهما في موقفهما هذا لم يكونا يستطيعان . ان يخرجاً من حيرتهما
 الصامتة إلى الضحك أو إلى الكلام . فقد كان بينهما هذا القبر القائم
 يضطرهما إلى شيء من الوقار لا يمكن معه ضحكا ان أرادا الضحك ،
 ولا كلاماً ان أرادا الكلام . وهما من أجل ذلك قد لبثا صامتين واجميين .
 يلتزمان مخرجاً من هذا الصمت . ومنصرفاً عن هذا الوجود ،
 فلا يجدان الى شيء من ذلك سبيلاً . وقد أخذ كل واحد منهما يحدث
 نفسه بالانصراف عن هذا القبر يرى في هذا الانصراف فرجاً من هذا
 الحرج ، ومخرجاً من هذا الضيق ، ولكن كل واحد منهما كان يسأل
 نفسه أيبداً هو بالانصراف أم ينتظر حتى يضطر صاحبه إلى أن
 ينصرف ؟ وانهما لفي هذه الحيرة المتصلة ، وإذا خطر يسمع وقعه من
 بعيد ، فيرفعان راسيهما ويتظران من حيث يسمعان ، فإذا شخص يقبل

بطيئاً رزينا متكلفا للوقار ، ولايكاد يدنو منهما حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما نفسه ، فهو صديقهما الثالث الذى تعود ان يلقاهما حين يقبل المساء من كل يوم ، وان يسمر معهما حيث تعودوا ان يسمرؤا فى ناد من اندية القاهرة أول الليل ، وان ينصرف معهما إلى حيث تعودوا ان ينصرفوا حين يوشك الليل ان ينتصف ، فيلقون فى بعض الأندية الخاصة من يلقون من رفاق اللهو وخلان العبث والمجون ، حتى إذا كاد الليل يبلغ ثلثيه أو ثلثيهم إلى تلك الدار التى تعودوا ان يآوؤا إليها فى آخر الليل ، وقد خلصت نفوسهم حظ اللهو ، وصفت ضمايرهم للعبث ، وحسن استعدادهم للمجون أو قل ان شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنا لك يكون شرب الكؤوس الأخيرة ، وهناك تنطلق الألسنة بما تشاء فى غير تكلف ولا تحرج ، وهناك ترسل النفوس على سجيبتها فى غير احتياط ولا تحفظ ، وهناك يخلع الإنسان عن نفسه هذه الخصال المصطنعة التى فرضتها الحضارة على المتحضرين . ويصير إلى حال من الإنسانية المترفة الفاجرة التى تنحط بصاحبها ، أو ترتقى بصاحبها لا أدري ، إلى حيوانية مترفة لا أدب فيها ولا وقار . حتى إذا انهزم الليل وولى مدبراً وانتصر الصبح وأقبل ظافراً ، انسلوا من هذه الدار لا تكاد أقدامهم تحملهم ولا تكاد أجسامهم تسع نفوسهم ، ولا تكاد السنتهم تنطق ، ولا تكاد عقولهم تفكر ، ولا تكاد قلوبهم تشعر ، لأنهم قد اسرفوا على أنفسهم فى الاستمتاع بانسانيتهم المهدبة ، التى نعمت حتى أفسدها النعيم واثرت حتى أطغاهم الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار متثاقلين متهاككين يسندهم الخدم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على شيء من الجهد فى السيارة . يظهر الاكبار له ويضعف الاستهزاء به ، ثم يمضى بهذا المتاع الغالى الرخيص حتى ينتهى به إلى داره ، وحتى يرد منه إلى أهل الدار شيئاً عظيماً جداً فى أعين الناس حقيراً جداً فى عين نفسه وفى عين أهله ، وهو هذه البقية التى تركها الصبا واللهو والخلاعة والمجون .

فإذا تقدم النهار وارتفع الضحى ، وزالت الشمس أو كادت تزول ، أفاقت هذه البقية البالية من نومها الثقيل الغليظ وتلقاها عمال الترف أولئك الذين يجددون البالى ويحسنون القبيح ويقيمون المتهم ويردون الشباب الى من فارقهـم الشباب ، وما هي إلا ساعات حتى تستأنف هذه البقايا البالية حياة جديدة فيها نشاط وقوة ، وفيها جمال ونضرة ، وفيها شوق مجدد إلى اللهو وفيها نزوع مستأنف إلى المجون . ولا يكاد النهار يبلغ آخره حتى يخرج من هذه الدور أشخاص فيهم كثير من المرح ، وكثير من الفتون وكثير جدا من الجهل والغرور . وإذا هؤلاء الأشخاص يلتقون فى ناديبهم الذى تعودوا أن يلتقوا فيه ، فتكون الدعابة الفاترة وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون المزاح السخيف ، ويكون الإقبال الفاتر على العبث الفاتر ، وكلما تقدم الليل ازداد النشاط واشتد المرح وعظم الخطر من العريضة ، وأخذ كل جسم من هذه الأجسام يصير ثوبا قد دخلت فيه نفس جنية طغى عليها الهوى وجمحت بها الشهوة ، واندفع بها حب الإثم الى غير حد وإذا هم يستأنفون ليلا ، كليهم الماضى ويستقبلون حياة ناعمة يائسة كحياتهم الماضية ، ويعودون إلى دورهم مع الصبح بقايا محطمة لا تريد شيئا ، ولا تقدر على شىء ولا تصلح لشىء حتى يشتمل عليها النوم فيرد إليها شيئا من قوة . ثم يتناولها عمال الترف الذين يرفعون البالى ويجددون القديم حتى يردوا هذه البقايا البالية اشخاصا قادرة مريدة . ولكنها لا تقدر إلا على الفساد ، ولا تريد إلا الإثم والمجون . ولكنهم فى هذه المرة لم يلتقوا فى ناديبهم ذاك الذى تعودوا ان يلتقوا فيه حين يقبل الليل ، وانما التقوا فى مكان لم يكن ينتظر ان يلتقوا فيه ، ولا ان يذهب اليه واحد منهم ، فليس فيه لهو وليس هو مظنة للهو ، وليس فيه سمر ، ولا هو مظنة للسمر ، ومتى لها الناس بين القبور ؟ ومتى سمر الناس حول قبر لم تمض على إقامته إلا أسابيع قليلة ؟ كيف ذهب هؤلاء النفر إلى هذا المكان الموحش فى قلب الصحراء ؟ وكيف التقى هؤلاء النفر حول هذا القبر الذى لم تستقر فيه صاحبتة إلا منذ امد قريب ؟ هذه هي المسألة التى القاهـا كل واحد منهم

على نفسه فوجد الجواب عليها سهلا يسيرا ، وهم ان يفكر فيها ويستقصى التفكير ويتعمقه ، لولا انه لم يخلق للتفكير ولا للاستقصاء ولا للتعمق ، وانما خلق للعبث ، والمجون الذى يفسد المروءة ويذهب بنضرة الاجسام والنفوس .

فلم يكد ثالث القوم يرى صاحبيه حتى اخذه ما اخذهما من الدهش وعراه ماعراهما من الدهول ، وغشيه ماغشيتهما من الوجوم ، ولكنه لم يملك نفسه طويلا ، وانما هم ان يضحك ثم استحيى من الغير فولى مدبرا وتبعه صاحبا ، حتى اذا بعدوا عن هؤلاء القوم اللذين لا تزاور بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشور كما يقول أبو نواس ، تساءلوا كيف كان سعيهم إلى هذا المكان ، ووقوفهم عند هذا القبر ، والتقاؤهم على غير ميعاد .

وقد جعل بعضهم يكذب بعضا فى شيء من الحيرة المتباعدة او من التبلد الخائر ، ولكنهم تواصفوا ماراوا ووزانوا بين ما سمعوا فلم يروا بدا من ان يصدق بعضهم بعضا ، ولم يروا بدا من ان يعترفوا بهذا الامر الغريب العجيب الذى كان خليقا ان يملأ قلوبهم روعا ونفوسهم هولا ، لولا انهم تعودوا ان يجدوا فى الكاس ما يغسل قلوبهم من كل روع ، وينفى عن نفوسهم كل هول . ولست ادرى الام صارت امورهم جميعا ؟ ولكن اعلم ان احدهم على اقل تقدير قد ادركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة تشبه الخبل والامت به علة لست ادرى اثبت لها ام يعجز عن ان يقاومها ويجد إلى البرء منها سبيلا .

وقد تسالنى أنت عن سعيهم إلى هذا المكان الموحش فى الصحراء ووقوفهم عند هذا القبر الذى لم يقم إلا منذ امد قريب ، والتقاؤهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين اخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وتجرح على هذه القبور اشعة شاحبة ، ان صورت شيئا فانما تصور حزنا كأنه كان صدق يردده الجو لهذا البلى الذى كان يعمل جاهدا فيما احتوته هذه القبور .

ولست اكره ان أقص عليك مصدر هذا كله . ولكنى اعتقد انك ستدهش لما أقص إليك من حديث . فانت وما شئت من الشك . وانت

وما أحببت من الثقة وانما الشيء الذى أطمئن إليه أنا كل الاطمئنان ،
هو انى انما أحدثك بشيء قد وقع واصور لك فى هذا الحديث امرا قد
كان ، وكل ما أتمنى هو الا يعرض لك مثل ماعرض لهؤلاء النفر الثلاثة
الذين افسد عليهم امرهم ما أغرقوا فيه من عبث ولهو وما تهالكوا عليه
من أثم ومجون .

كان هذا القبر الذى التقوا عنده مستقرا لغاية حسناء رائعة
الحسن ، بارعة الجمال ، فاتنة الظرف ساحرة الطرف ، تعودوا ان
يلقوها فى تلك الدار التى كانوا يآوون إليها من آخر الليل ويستنفدون
فيها مابقى لهم من قدرة على المجون والعبث ، وكانت تلقاهم لقاء سواء
تعدل بينهم فيما تهدى إليهم من ظرفها وخفتها ومن رشاقتها وناققتها
ولباقتها ، ومن هذا التودد الذى يغرى ويطمع حتى يخيل إلى المرء أنه
مشرف على الغاية ، ومنته إلى الأمد ، وبالغ مايريد ، ثم هو لا ينتهى به
مع ذلك إلا إلى اليأس المهلك ، والقنوط الذى يملأ القلوب لوعة
وعذابا ، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل .
ومنيبى حتى إذا ما ملكتنى بقول يحل العصم سهل الإبطاح
تذاعت عنى حين لالى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح
ولكنهم كانوا أجهل جهلا ، واحمق حمقا ، وأفرغ أفئدة ، واسخف
عقولا ، من ان يتمثلوا الشعر أو شيئا يشبه الشعر . انما كانوا
اصحاب لذة غليظة جافية يشقون ليتنعموا . وينعمون ليشقوا ،
وياليمون ليلذوا ، ويلذون لياليموا دون أن يوازنوا بين شقاء ونعيم ،
او بين لذة والم ، قد دفعوا إلى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس ، فهم
مندفعون إلى الحياة لا يفكرون فى نعيم ولا بؤس . دفعهم إلى هذه
الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا فى كسبه عناء ، وتربية لم تمنحهم
احلاما راجحة ولا بصائر نافذة ، ولا قلوبا قادرة على ان ترتفع عن
اللذات المادية الاثمة والشهوات المندفعة الجامعة .

فكانوا إذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خليات اللهو
ورفيقات العبث والمجون يجدون فى هذا اللقاء حبا وبغضاء ، ورضى
وسخطا وانجاجا واخفاقا . ولكنهم قد اتصلت نفوسهم جميعا بهذه

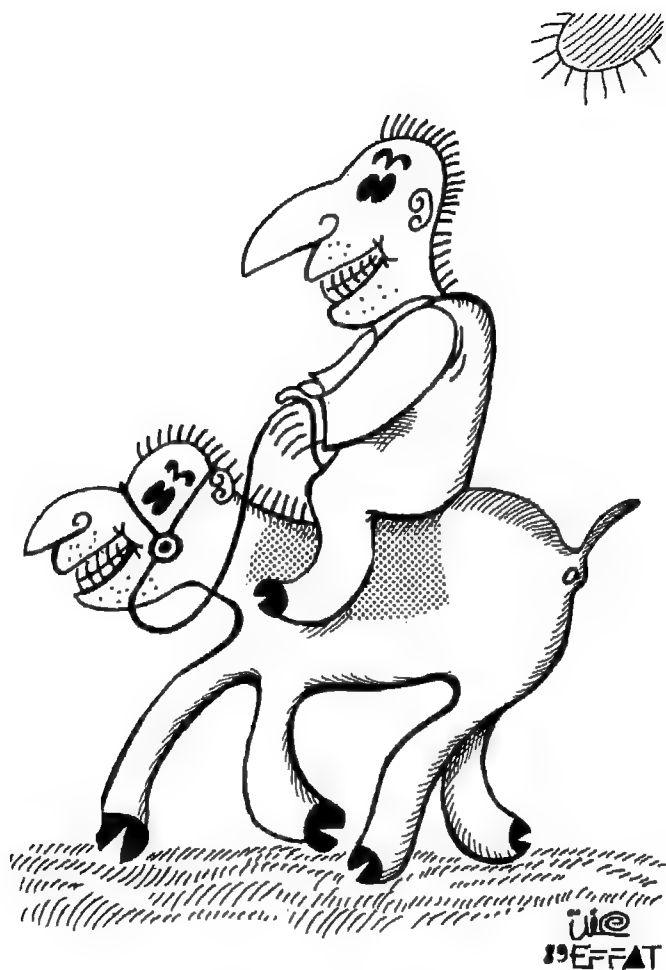
الفتاة اتصالا شديدا وتعلقت قلوبهم بها تعلقا عنيفا . واشتدت آمالهم فيها وعظم ياسهم منها حتى أخذ بعضهم ينفس على بعض ما يصدر عنها من لفظ ولحظ وإشارة . وحتى كاد بعضهم يصبح فيها لبعض عدوا . وهم على ذلك كانوا يجتمعون ويفترقون لا يزيدهم الاجتماع إلا تنافسا وتباعدا ولا يزيدهم الافتراق إلا حرصا على التدانى وتكلفا باللقاء .

وقد أخذ كل منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم انها تؤثر فلانا من دونه ، ويشد حقه على فلان ومكره به ، وكبده له ، حتى كاد الأمر ينتهى بهم إلى أعظم الشر . ولكن الأيام أراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم هذا الشر المستطير ، لأنها اختلطت من بينهم هذه الغادة الحسنة فى حادثة من هذه الحوادث التى تنقل الناس من الدار الأولى إلى الدار الآخرة فى طرفة عين . فاجتمعت قلوبهم على الحزن والتكل وحزن هؤلاء وأمثالهم لا يتصل ولا يطول ، فما هى إلا أيام حتى يستأنفوا حياتهم كما ألفوها عابثة ماجة وسخيفة فارغة .

ولكن أحدهم يفيق من نومه مروعاً ، مفزعاً ، شديد الذهول فقد رأى طيف هذه الغادة الحسنة يلم به فى اثناء نومه الثقيل فيزود عنه النوم ويرده إلى يقظة شديدة . وإذا هو ينظر فىرى صاحبة كما تعود أن يراها فاتنة ساحرة تدنو منه وتتلف له وتتودد إليه ، وتقول له فى صوتها العذب الذى يسحر القلوب : ما كنت أحسب انك ستتركنى حيث أنا وحيدة مستوحشة لاتهدى الى زيارة ولا تحدث بى عهداً ، ما أسرع ما نسيتنى وانى على ذلك لم أنسك ، ولا يمكن ان أنساك . ألم بدارى قبل ان يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه وينظر فلا يرى شيئاً . ويتسمع فلا يسمع شيئاً . وينهض فيستأنف حياته كما تعود أن يستأنفها كل يوم لا يلقى بالا إلى ما رأى ولا يلقى بالا إلى ما سمع ، فإذا كان الغد جاء الطيف كما جاء أمس وتحدث إليه بمثل ماتحدث به أمس . وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة ، حتى لم يشك فى ان من الحق عليه ان يلم بهذا القبر وأن يهدى إليه تحيته فى طاقة من الزهر . وقد فعل ، فلم يكذب يبلغ القبر حتى رأى صاحبه ولم يكذب يقوم على القبر مع

صاحبه حتى أقبل صاحبهما الثالث . فلما انصرفوا عن القبر قص
احدهم على صاحبه ما رأى وما سمع . فإذا كل واحد منهما قد رأى مثل
ما رأى ، وسمع مثل ما سمع ، وأبطأ مثل ما أبطأ ، ثم أقبل على القبر
كما أقبل عليه يحمل إليه التحية وطاقه من الزهر .
أتراها أرادت ان تستيقى بينهم المناقسة والخصام بعد موتها ، وان
تضطرهم إلى أن يحفظوا لها من الود مثل ما كانوا يظهرون لها قبل ان
تموت ؟ أم تراها أضغاث أحلام قد عبثت بنفوس هؤلاء النفوس الثلاثة .
ولكن كيف يتفق ان يلم الطيف بهم فى يوم واحد ويتراءى لهم فى
صورة واحدة ، ويلقى إليهم حديثا واحدا أو يضرب لهم موعدا واحدا .
قلت لصاحبى حين انتهى من حديثه إلى هذه الأسئلة ، لا أدرى
ولا أستطيع ان أفتح عليك ، فصل من شئت من الجامعيين الذين
يدرسون دقائق علم النفس فلعلك تجد عندهم غناء .





أم خفيف

لاتخذعى عنه ياسيدتى انك تريه مكيئا ركيئا
ورزيئا رصيئا يسعنى هادئا إذا سعى ويمشى
مطمئنا إذا مشى ، ولكنك لم تريه حين يأخذه
المرح ويستخفه النشاط إذا خرج للرياضة فى
الصحراء مصبحا أو ممسيا . ولو قد رايتَه إذ ذاك
لعلمت أنه يحسن الجرى ويجيد العدو ويتقن
الوثوب فى الهواء والتلوى فى الفضاء ، ولخيل اليك ان جسمه الضخم
العريض القوى المتين لم يركب كما ركبت أجسام الناس ، وانما وصلت
أجزاءه بلوالب تمتد ان أراد لها امتدادا ، أو تنقبض ان أراد لها
انقباضا ، وانك تريه معتدل الحركة مقتصدا فيها ، ان حرك رأسه كأنما
شد عنقه من بين كتفيه بأمراس الكتان إلى صم الجندل كما يقول
الشاعر القديم . بل هو أقدر على أكثر من ذلك فهو مالك لأجزاء وجهه
يحرك منها ما يشاء حين يشاء ويسكن منها ما يشاء حين يشاء ويحركها
كلها أحيانا ، إذا أراد أن يسحر ويبهر أو أن يرهب ويخيف ولو رايتَه
حين يستخفه الطرب ويستهويه نعيم الحياة لرايت رجلا لا يملك من أمر
نفسه شيئا ، وانما هو حركة متصلة مضطربة . لاحظ لها من وقار
ولانصيب لها من اعتدال ، كأنما فقدت هذه القوة الإرادية التى تحرك
الأجسام بمقدار وتسكنها بمقدار وتلائم بين عواطف القلب وحركات
الجسم ملائمة الذين لا تتسلط عليهم الغرائز وانما تدبر أمرهم العقول ؛
وانك تسمعينه يتحدث فإذا صوت هادىء متزن ولفظ مطمئن متند ،
وحكم يظهر فيه القصد وتشيع فيه الاستقامة ويأخذه الاعتدال من
جميع أقطاره ، ولو قد سمعته حين يثيره الغضب أو حين يزهيه
الخوف ، أو حين يغلبه الرضى على أمره ، لعرفت كيف يرتفع الصوت
حتى يصم الأذان وكيف يضطرب اللفظ حتى لا يستقيم تاليفه على نحو

من أنحاء الكلام المألوف ، وكيف يختلط الحكم حتى لاتدركه العقول
ولاتسيغه القلوب ، وانك ترين عليه زينة تاخذ الابصار وشارة
تستهوى العقول .

ولو رأيته حين يتخفف ولايتكلف ، لرأيت الاملال الذى تقفحه
العيون والابتذال الذى تزور عنه النفوس ، وانما هى حياة الناس
ياسيدتى تقوم على التكلف اكثر مما تقوم على الاسماح وتجرى على
الرياء اكثر مما تجرى على الإخلاص ، وتمضى على الكذب اكثر
مما تمضى على الصدق ، وتعطى من الناس صوراً ليس بينها وبين
حقائقهم سبب ، وتردد من اصوات الناس اصداً ليس بينها وبين
نفوسهم صلة ، قد جرى فيها الخداع كما يجرى الماء فى الغصن
الرطب ، وسرى فيها النفاق كما تسرى النار فى الحطب الجزل ، انك
ترينه ياسيدتى يذهب ويجىء فترضين لأنه إنما يذهب ويجىء فى
ثوبين خلع أحدهما على نفسه وخلق الآخر منهما على جسمه . وهو
كغيره من الناس يلبس هذين الثوبين حين يريد أن يفارق نفسه للقاء
نظرائه ، ويخلع هذين الثوبين حين يريد أن يفارق نظرائه ليخلو
لنفسه . وصدقينى ياسيدتى انى لم أخطىء حين شبهته منذ حين
بالأوزة التى تعبت فى مجتمع من الماء ، انك ترينها من بعيد فيعجبك
منظرها تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها فى الماء مقبلة مدبرة
وخافية ظاهرة . وارتفاعها فى الجو طائفة مقاربة فى الطيران تخفق
بجناحيها خفقا لا يخلو من ظرف وتبعث صيحات تؤذى الأذن ولكنها
لا تخلو من فرح ومرح ، وقد يروك شكلها حين تطفو على الماء وقد
بسطت جناحيها ورفعت عنقها الطويل براسها الخفيف وعرضت للضوء
والهواء صدرها الجميل . كل هذا يعجبك ويخلك ، وقد يروك ويروك
فتسعين إلى مجتمع الماء هادئة مطمئنة ، تودين لو استطعت . أن
تبلغى الشاطئ ، وتقضى من الأوزة غير بعيد وتيرى بينك وبينها
بعض الحديث . ولكنك لاتلتبين أن تذكرى أن حماقة الأوز قد ضربت
بها الأمثال منذ العصور القديمة فى غير أمة من الأمم وفى غير لغة من
اللغات . وإذا انت تلقين على الأوزة الجميلة نظرة طويلة فيها كثير من

حزن ، وفيها كثير من أشفاق ، وفيها كثير من ازدراء ، لأن طبيعتنا تنبو عن هذا التناقض بين الظواهر التي تخيل أشياء كثيرة والدخائل التي لا تحقق شيئا . وليس على صاحبنا ياس من أن يشبه الأوزة في شكله وعقله ، لأنه لم يخلق نفسه ، ولم يلائم بين هذا الجسم الثقيل والعقل الخفيف ، وإنما هي حكمة الله التي نفهم أيسرها أحيانا ونعجز عن فهم أعظمها في أكثر الأحيان .

وقد عرفت صاحبنا معرفة دقيقة متصلة منذ أيام الطفولة والصبي ، وفي أيام الشباب والكهولة ، واستطعت أن أقطع بان كل شيء من حوله كان يهيئه ليكون أوزة ناطقة فقد نشأ في أسرة موسرة من أسر الريف . وكان عطف أبويه عليه شديدا . فقد كانا يرفقان به مصبحا وممسيا ، ويتعهدانه بالعطف واللفظ أثناء النهار وزلعا من الليل ، وكانت أمه تراه وتعطف عليه عطفًا خاصا كما تعرف الأم الجاهلة الغافلة كيف تراهم ابنها وتعطف عليه .

وكان أخص مظاهر حبها له وبرها به عنايتها بطعامه فقد كانت تصبحه بخير ما يصبح به أبناء الموسرين في القرى من هذه الألوان التي تلذ الأثواء وتملا البطون وتشيع في الأجسام ضخامة وغلظا . ثم كان لا يعود إليها من لعبه أو من كتابه أو من مدرسته إلا وجد عندها طعاما تلقيه في فمه أو تدسه في جيبه أو تضعه في يده . فنشأ شرها متهاككا على الطعام ، وانفق صباه وشبابه يعلف في أسرته كما يعلف الأوز في تلك البيئات التي تتخذ تنمية الأوز تجارة ومكسبا .

وبمقدار ما كانت أسرته تعنى بجسمه فتسرف عليه في المطعم وتتألق له في الملابس ، كانت هذه الأسرة ترفق به أشد الرفق فيما يتصل بالدرس من قريب أو بعيد فلم تكن تشق عليه في الملاحظة إذا عاد من المدرسة ، ولعلها كانت تضطره إلى الاعراض على القراءة والذاكرة ، فقد كانت تخاف عليه من أيسر الجهد وتركه له الانحناء على الكتاب وتشفق على عينيه من ضوء المصباح . وكثيرا ما تقدم أبوه إلى معلمه في الكتاب وإلى أساتذته في المدرسة في ألا يكلفوه من الدرس شططا . فهو لا يهيا ليتخذ من العلم صناعة ولا من المدرسة

وسيلة الى كسب الحياة . وانما هو يذهب إلى المدرسة كما يذهب إليها
أترابه من أبناء الاسر ليتعلم فيها ما يرتفع به عن الجهل وما يميزه من
أهل القرية التي يعيش فيها . ولكن الصبي كان يحب ان يتعلم لارغبة
فى العلم أو حرصا عليه ولكن عنادا لابويه هذين اللذين كانا يقتران
عليه فى الدرس ويسرفان عليه فى الطعام والشراب . فقد سار الصبي
فى درسه سيرا قصيرا فلم يكن متفوقا ، ولم يكن شديد الغباء ، وإنما
كان شيئا بين ذلك حتى إذا أتم دراسته الثانوية رأى الحكومة تختار
المتفوقين من أترابه فترسلهم إلى أوروبا لينتصروا الدرس ويعودوا بعد
ذلك ليشغلوا مناصب الدولة ويختلفوا إلى المكاتب فى الدواوين .
ورأى بعض الأسر الغنية ترسل المقصرين من ابنائها عن نيل
الشهادات المصرية إلى أوروبا لينالوا الشهادات الأوروبية . ونظر فإذا
أترابه الذين كانوا يتفوقون عليه والذين كانوا لا يبلغون منزلته
يسافرون إلى أوروبا . فلم لا يسافر كما يسافرون ، ولم لا يعبر البحر كما
يعبرونه ؟ وليسوا أكثر منه مالا ولا أبرع منه جمالا ولا أحسن منه شارة
ولا أجمل منه زيا ولا أرقى منه ذوقا فى اختيار أدوات الزينة التى
يتجمل بها الشبان المترفون . ثم هو يلوى لسانه بالرطانة الأجنبية كما
يلوون بها السنتهم ثم هو يحسن التصرف فى أشياء لا يحسنون
التصرف فيها . وإذن فلم يتاح لهم السفر ويقضى عليه ان يكون من
المتخلفين ولم يجد مشقة فى ان يظفر من أسرته بالإذن له فى هذا
السفر الطويل . فقد مانعت الأم وبكت وشكت ولكن الأب اجاب ابنه إلى
ما أراد راضيا عنه ، مغتبطا به ، فقد كان يحب ابنه أشد الحب ويعجب
به أشد الإعجاب ويرى فى سفره إلى بلاد الانجليز فخرا أى فخر
وامتياز أى امتياز . وقد ذهب الفتى إلى بلاد الانجليز وأقام فيها
ما شاء الله ان يقيم وعاد منها لم يتعلم شيئا إلا التائق والتحدث
والبراعة فى لى اللسان حين يتكلم الإنجليزية والعربية جميعا .
والافتنان فى ارتضاع البيبة كما يرتضع الطفل ثدى أمه .
عاد من بلاد الانجليز لم يتعلم غير هذا شيئا وهو واثق مع ذلك انه
قد تعلم كل شيء . وقد اتيح له من ظروف الحياة المصرية ومن جاء

أبيه ما وصل أسبابه بأسباب الحكومة . فعمل في ديوانه مترفا اشد الترف ، فارغا اشد الفراغ ، مشغولا بصغائر الأمور مصروفا عن عظامها .

ثم كانت الحركة الوطنية واضطراب السياسية واختصام الأحزاب وانقسام الناس بين هذه الأحزاب مؤيدين ومعارضين ومنفعين من المعارضة والتأييد . ومنذ ذلك الوقت تولت الظروف الارتقاء بصاحبنا من منصب إلى منصب ، ومن منزلة إلى منزلة ، حتى هبى له من المكانة ما تعلمين . واغرب شيء فيه ماترين من اجترائه على التحدث في كل شيء والعجز عن أن يقول شيئا ، ومن براعته في النزول بعظام الأمور وجسام الشؤون إلى حيث تصبح ضئيلة يسيرة مبتذلة ، يرتفع عن الحديث فيها من اتاح الله له حظا من معرفة أو نصيبا من امتياز ، وهو على ذلك متنفخ منتفش ، يرى نفسه عظيما ، ويراه كثير من الناس عظيما ، فإذا حققناه لم نجد وراء هذه العظمة شيئا لأنها عظمة منحولة مدخولة لاتعتمد على شيء من شخص صاحبها بقدر ما تعتمد على الباطل والغرور . وقد تسالين كيف ارتقت به هذه العظمة الكاذبة من درجة إلى درجة ، ومن مكانة إلى مكانة . ولكنى أرجو أن تكونى أقل سداجة من هذا ياسيدتى . فليس ينبغي أن تسالى عن الضعفاء والعاجزين كيف يرتفعون . فذلك ملائم لطبيعة الأشياء ، وانما ينبغي أن تسالى عن الكفاء كيف يثبتون في مواضعهم وكيف يتاح لبعضهم أن يرقى إلى شيء من امتياز المنصب وارتفاع المكانة فذلك هو المخالف لطبيعة الأشياء ، المبين لمنطق الدنيا ، كما يقول كاتب اديب من أصدقائنا .

والشيء المحقق هو انى لم أر صاحبنا قط مقدما على شيء أو محجبا عن شيء ، أو مجادلا لخصم أو مناظرا لصديق إلا هممت أن أقول له ماقال ابن شهيد لاورته تلك الاندلسية في تلك القصة الظريفة التي جرت بينه وبين حمير الجن وبغالها :

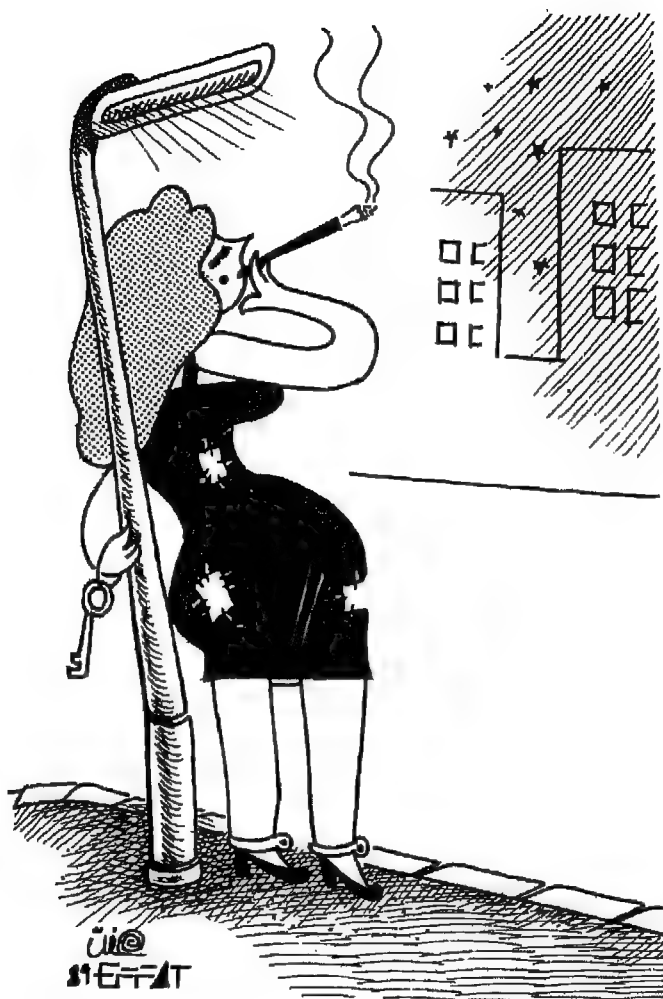
يا أم خفيف ، بالذى جعل غذاك ماء ، وحشا راسك هواء ، ألا إيماء أفضل : الأدب أم العقل ؟ قالت : بل العقل ، قال ابن شهيد : هل تعرفين

فى الخلأئق اأحق من أوزة ، ودعيتى من مثلهم فى أأبارى ؟ قالت لا . قال ابن شهيد : فتطلبى عقل التجربة إذ لاسبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أأرزت منه تصيبا ، وبؤت منه بأأق فأينئذ ناظرى فى الأأب .

قالت السيدة متأأأكة : لىكن أأأبنا أوزة أو دأأة أو ماشئت من ذوات الأأأة والريش ، ولكن أأأنى عن هذا البأع الذى أأأت فيه منذ أأين . فأأ جعلت لا أسالك عن أأأ إلا أأريت له من أأوان مثلا . قلت وأى بأع فى ذلك ياسيأتى انما هو فن قأيم من فنون الأأب . لىس العرب قأ شأهوا الإنسان بأأوان منذ أول الأهر ! لىس الله عز وجل قأ شأه بأعأ الناس بأأأ الذى أن أأمل عليه يلهث أو أأركه يلهث ، لىس الله عز وجل قأ أأرب أأمار الذى أأمل عليه الأسفار مثلا للذين أأملوا التوأرة ثم لم يأأملوها . أو لست قأ أأأأك انفا بأأصة ابن شهيد مع أوزته تلك الأنألسية ، أأين أأورها فى روضة من رياض أأن بأأأر من زهيرين نأير وبمشأ من أأأير والبغال التى كانت تنشأه أشعارها . فما تنأرين من ذلك ، والله لم يأأق الأشياء عبنا وانما أأل فيها لنا منافع ، ووأنا إلى أن نأأير بأكل ماأأق من أأى والميت وأن نأأأس فيه الموعظة التى أبصر أألوب وأأأمة التى أأأى العقول .

قالت السيدة وقأ أأأب إلى أأأ وأأأ أأببة أأببة أأأأ أأأ وأأقرأ القرآن هذا أأق ، وأقرأ أن شئت قول الله عز وجل فى سورة النأل : ﴿ والأناأم أأأأها لكم فيها أأأ ومنافع ومنها أأألون ، ولكم فيها أأال أأين أأريأون وأأين أأرأون . وأأأل أنأألكم إلى أأل لم أأونوا بأأيه إلا بأأ الأنأس أن رىكم لأرؤوف رأيم . والأأل والبغال والأأأير لأركبوها وزينة ويأأق ما لاأألمون وعلى الله أأأ السأيل ومنها أأأر ولو شاء لأأأكم أأأأين ﴾ .





الغانيات

- من أين اقبلت يا ابنتى !
- من حيث لا تبلغ الظنون ..
- ماذا تريدین يا ابنتى ؟
- أريد مالا تقدرين ..
- كيف تقولین يا ابنتى ..
- أقول ما لاتصدقون !

— اسرفت فى الرمز يا ابنتى .

— بل مالكم كيف تحكمون !

وينظر الشيخ حوله فلا يرى من يحاوره ، وينكر الشيخ نفسه ولا شكوك تساوره ، فقد رأى شخصها الجميل ، تظله هذه الغصون ، ولم يزل صوتها الضئيل ، يثير فى نفسه الشجون . وكانت الشمس قد تولت ، كالأمل الخائب الكذوب ، وظلمة الليل قد اظلت ، كاليأس اذ يغمر القلوب .

وقد لبث الشيخ مكانه قائما واجما ، يرفع رأسه إلى السماء حيناً ، ويخفض رأسه إلى الأرض حيناً آخر ، ويقلب طرفه فى الفضاء بين ذلك ، يلتمس هذه الفتاة الأنيقة الرشيقة ذات الوجه النضر والقدر المعتدل . هذه التى بدت له رائعة بارعة على أنها لم تتخذ زينة ولا حلياً ، ولم تتخذ من الثياب ما تعودت الفتيات الحسان اتخاذه ، وإنما بدت له ساحرة باهرة ، تحيط بها هالة من الفتنة الفاتنة ، على ما كان يستر جسمها الغض البض من ثوب هو إلى السذاجة القروية أدنى منه إلى تكلف المدن ، وهو إلى البلى أدنى منه إلى الجدة . فلما رآها انكرها ، ثم دار بينه وبينها هذا الحوار الذى ابتدء به هذا الحديث والذى لم يفهم منه شيئاً ، والذى كان يريد ان يمضى فيه حتى يعلم من الفتاة علمها ويظهر على جلية أمرها ولكنه ينظر

فلا يراها ، ويدعو فلا يسمعها ، ويبحث فلا يجدها فيلبث في مكانه حائراً مرتاعاً ، يكاد يكذب عينه فيما رأت وأذنه فيما سمعت لولا أن صورتها تلج على نفسه فتملأها جمالا وسحرا ، ولولا أن صوتها يلح على قلبه فيشيع فيه طربا حزينا .

وقد طال وقوف الشيخ وطالت حيرته وأخذت الظلمة تغمر الأشياء من حوله ، وكان خليقا أن ينسى نفسه في موقفه هذا الغريب ، لولا أنه سمع ذلك الصوت الضئيل العذب يقول له : أسرع أيها الشيخ إلى صلاتك فقد أوشكت أن تفوتك وأوشك المؤذن أن يدعو إلى العشاء الثانية . لاتبحت عني فلن تراني من ليلتك هذه .

ولم يكد الشيخ يسمع هذا الصوت حتى تاب إلى نفسه وثابت نفسه إليه ، وذكر أنه قطع حديثه مع الباشا فجأة ، وانصرف عنه عجلا ليشهد صلاة المغرب والعشاء مع جماعة الناس كما تعود أن يشهدها في مسجد القرية الذي يقوم في طرف من اطرافها غير بعيد من القصر ، وأنه ليسعى في طريقه إلى المسجد وإذا هذه الفتاة تترأى له من بين هذه الشجرات التي تقوم عند آخر الحديقة وتمد اغصانها متكاتفه مختلطة كأنها تريد أن تتخذ منها للقصر ستارا جميلا صفيقا ، وقد أسرع الشيخ إلى صلاته وهو يحدث نفسه بأنه سيؤديها منفردا وسيؤدى العشاء الثانية مع جماعة الناس ، ولكن الصوت الجميل الضئيل كان يتبعه قائلا له لا تذكرني لاحد ، ولا تتحدث عني إلى أحد فإنك ان فعلت لم تجن من ذلك إلا شرا . ولا يستطيع الشيخ أن يفكر أن ظهور هذه الفتاة له واحتجابها عنه وتحديثها إليه وتشيعها له ، كل ذلك قد ملا قلبه فرقا ، لم يسكت عنه إلا حين دخل المسجد واستقبل القبلة مقيما للصلاة ، ولو أطاع الشيخ نفسه لتحدث إلى أصحابه بعد أن فرغوا من صلاة العشاء الأخيرة بما رأى وما سمع ، ولكنه كان كلما هم بذلك أو بشيء منه رد نفسه عنه ردا عنيفا مخافة أن يظن الناس به الظنون من جهة ومخافة هذا النذير الذي القته الفتاة إليه من جهة أخرى .

وقد راح الشيخ إلى أهله حين تقدم الليل ، وكانت نفسه تنازعه أن يتحدث إليهم ببعض ما رأى وما سمع ولكنه ردها إلى الحزم وحملها على الصمت ، مخافة أن يظن أهله به الظنون وأن يتحقق هذا النذير الذى القته إليه الفتاة فاستقبل الليل كارها لهدوئه ، وطلب النوم جاهدا فلم يظفر به إلا بعد انتظار طويل ولم ينعم به يريئا من الأحلام المزعجة والأطيايف المروعة ، ولم يعرف الهدوء إلا حين استقبل النهار المشرق واضطرب مع أهل القرية فيما تعود أن يضطرب معهم فيه من شئون الحياة . ولم يزر الباشا من يومه ذاك ، كانه قدر أن هذه الفتاة ستعرض له بين تلك الشجرات مستظلة بتلك الغصون المتكاثفة فى طرف الحديقة مما يلى القرية . وقد شهد صلاة العشاءين مع أصحابه واستقبل ليلة هادئة ، واستقبل نهارا مشرقا هادئا ، حتى إذا ارتفع الضحى ، سعى إلى القصر يريد أن يزور الباشا فى النهار الواضح المبصر ، لا فى الأصيل الشاحب الذى يسعى إلى الإظلام أو يسعى إليه الإظلام ، والذى تعرض فيه الفتيات الحسان فى ظل الأغصان . ولكنه رأى الباشا مكتئبا مفرق النفس ، كان أمرا ذا بال يهيمه ، ويصرفه عن إدارة الحديث مع جلسائه كما تعود أن يدير الأحاديث فى لباقته ورشاقته وذكائه الحاد . وكان الشيخ أثيرا عند الباشا ، محببا إلى نفسه ، مشيرا عليه فيما يعرض له من الأمر ، فلما رأى اكتئابه وابتئاس نفسه ، أطل المقام ولم ينصرف مع الناس حين انصرفوا . وإنما استأنى وترىث ، حتى إذا خلا له وجه الباشا ساله مترقفا به عن هذا الأمر العارض الذى اهمه واضطره إلى ما هو فيه من هذا الحزن الكئيب .

قال الباشا وعلى ثغره ابتسامة شاحبة وفى صوته تكسر حزين ما أدرى أحدثك بهذا الحديث أم أطويه عنك ، فإني أنكره أشد الإنكار ، وأكاد أخفيه على نفسى أشد الإخفاء . وقد هممت أن أسافر إلى القاهرة لأرى الطبيب ، ثم بدالى فدعوت الطبيب إلى زيارتى ، وإلى أن ينفق معى يومه إذا كان الغد ، والأمد بيننا وبين القاهرة غير بعيد ، واليوم يوم الخميس ، فليس على الطبيب بأس أن ينفق معنا يومه غدا .

قال الشيخ : فإننى لم أفهم عنك ولم أتبين هذه الصلة الغريبة بين ما يظهر عليك من حزن ، وبين دعوتك للطبيب إلى أن ينفق معك ساعات من نهار .

قال الباشا : ألم أقل لك انى أنكر نفسى واخشى أن يكون قد ألم بى بعض العلة ، فقد رأيت أمس ما روعنى ، وسمعت أمس ما أخافنى ، وانى لاستحيى من نفسى حين أفكر فيما سمعت وما رأيت . وانى لاستحيى منك ان احدثك بما سمعت وما رأيت .

قال الشيخ وهو مهتم يتكلف الابتسام ، وصوته مضطرب يتكلف الثبات : ماذا سمعت وماذا رأيت ؟ قال الباشا فى صوت يكاد يبين عن الجزع : سمعت صوتا لم اسمع قط أعذب منه .. ورأيت شخصا لم أر قط أجمل منه . ثم انقطع عنى الصوت ، واحتجب عنى الشخص وترك فى نفسى ما ترى من حزن واكتئاب . وقد ذكر الشيخ ماراى ، وذكر ما سمع ، وهم أن يتحدث إلى الباشا بمثل ما تحدث به الباشا إليه ، ولكنه خاف النذير قاتر الصمت . ومضى الباشا فى حديثه فقال : كان ذلك حين أذنت الشمس بالغروب وحين أخذت ظلمة الليل تغزو الفضاء ، وقد كنت أسعى فى هذه الحديقة لما راعنى إلفاة بارعة الجمال ، رائعة القوام ، تنظر إلى بطرف نافذ كأنه السهم .. فاسألها من هى ومن اين اقبلت ! وإلى اين تريد وماذا تبتغى ؟ فلا اسمع منها إلا أجوبة غامضة لا أفهم منها شيئا ، فهى مقبلة من حيث لا أظن ، وقاصدة إلى حيث لا أقدر ، ومريدة مالا استطيع ، وقائلة مالا أفهم . وأريد أن استوضحها ، وإذا شخصها يستخفى منى ، وإذا صوتها ينأى عنى شيئا فشيئا وهو يقول لأبد مما ليس منه بد ، خير لك أن تقدم على الأمر طائعا راضيا من أن تقدم عليه كارها مضطرا . وقد سمعت هذه الكلمات الأخيرة يلقيها إلى صوت غريب كأنه الصدى .

ولم يشك الشيخ حين سمع حديث الباشا فى أن صاحبه تلك التى عرضت له فى طرف من أطراف الحديقة هى التى عرضت لصاحب القصر ، وهى التى تحدثت إليه ، ولكنه على ذلك لم يفض إلى الباشا بذات نفسه وإنما قال له متضحكا لو علمت أنك تسمع لى لطلبت إليك

أن تفعل كما أفعل ، وأن تقرأ أجزاء من القرآن في كل يوم تذكر الله بتلاوتها ، فإن ذكر الله يملأ القلوب أمنا واطمئنانا ويرد عن النفوس ما يروعها ويؤذيها من الخوف والريب ، وقد أحسنت إذ دعوت الطبيب وما أرى إلا أن مقدمه سينفعني فسااستشيره في بعض ما أجد من الضعف وأن كنت لا أنتظر منه خيرا كثيرا ، فإن هذا الضعف الذي أجده لادواء له لأنه ضعف الشيخوخة والهرم .

وننقل الرجالن في أحاديث كثيرة مختلفة أشد الاختلاف يسلي كل منهما بهذا التنقل نفسه وصاحبه عن هذه الصورة الملحة ، وهذا الصوت المتصل ، وهذا الذئير الغامض الغريب . وقد حرص الشيخ على أن ينصرف عن القصر قبل أن يصلى العصر حتى لا يرى ذلك الشخص ، ولا يسمع ذلك الصوت ولكنه يقبل الى المسجد حين يدعو المؤذن إلى صلاة المغرب ولا يكاد يبلغ الباب حتى يرى شخصين غريبين قد قام كل واحد منهما على جانب من جانبيه . وينظر الشيخ في شيء من الروع إلى أحد هذين الشخصين ، فلا يشك في أنه يرى الفتاة التي رآها في طرف من اطراف الحديقة ، وينظر إلى الشخص الآخر فإذا هو صورة مطابقة للشخص الأول كأنما كل واحد من هذين الشخصين تمثال لصاحبه يطابقه أشد المطابقة ويصوره أدق التصوير ، ويرى الشيخ على ثغر كل من هذين الشخصين ابتسامة حازمة صارمة ولكن فيها عذوبة تنفذ إلى قلبه فتملاه أمنا وروحا . وقد رفع الشيخ صوته حين رأى هذين الشخصين بتلاوة ماتيسر من القرآن ، ولكنه يسمع الصوتين يتلوان معه ما كان يتلو ويجد تلك العذوبة التي وجدها حين كانت الفتاة تتحدث إليه وتحاوره في ظل تلك الغصون ، فيسرع إلى المسجد مخافة الفتنة وينغمس في جماعة الناس ، وقد أشفق على نفسه من شر عظيم .

ولست في حاجة إلى أن أصور ماملأ قلب الشيخ من روع وروعة ، ومن خوف وامن ، ومن يأس ورجاء ، فقد كان يحب أن يرى هذه الصورة ويشفق من رؤيتها ، وقد كان يرجو أن يسمع هذا الصوت ويخاف من سماعه ، وقد جعل يحيا حياة مضطربة بين هذه العواطف

المتناقضة . وأقبل الطبيب فسمع من الباشا وتحدث إليه وامتنحه ولكنه لم يغن عنه شيئا . وما كان الطبيب ليغنى عنهما ولا عن غيرهما شيئا ، فما هي إلا أيام حتى كثر هذا الشخص أو كثرت صور هذا الشخص فى القرية وجعل كل واحد من اهل القرية يراه حين يغدو إلى عمله مع الفجر وحين يروح إلى أهله مع الاصيل .. وجعل كل واحد من اهل القرية يسمع منه ويتحدث إليه مصبحا وممسيا . ويرتاع لمنظره وصوته أول الامر ، ثم يالف منظره ويطمئن إلى صوته ، ويشتاق إلى أن يراه بين الفجر والاصيل ، ويشتاق إلى أن يسمعه فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

وقد جعل اهل القرية يتحدثون إذا التقوا عن هؤلاء الفتيات الحسان اللاتي يعرضن لهن فى الغلس حين يطلق النهار سهمه المضىء فيشق به ظلمات الليل ، وفى الاصيل حين يطلق الليل سهمه المظلم فيبدد به ضوء النهار . وجعل اهل القرية يتحدثون عن هؤلاء الفتيات الحسان المطمعات المغريات اللاتي يبدون لهم ويدنون منهم ويدعونهم إليهن فى شىء من الفتنة ولكنها فتنة نقية لا اثم فيها ولا حرج ، ولا لوم فيها ولا تثريب .

وجعل اهل القرية يسألون الشيخ عن هذا الحدث الغريب الذى ألم بقريتهم منذمحين فغير حياة الناس فيها تغيرا شديدا ، واثار فى قلوبهم آمالا لا حد لها ، وياسا لا حد له ، وغير رأى بعضهم فى بعض ، وغير رأيهم جميعا فى الباشا هذا الذى كانوا يؤمنون له ويدعون لسلطانه ويرون طاعته عليهم حقا . ويرون انهم ملك له كما ان ارضه ملك له .. الا انهم يحيون والارض لاتحيا ويرون انهم ملك له كما ان ماشيته ملك له ، إلا انهم يعقلون وينطقون والماشية لاتعقل ولاتنطق ، تغير رأيهم هذا فى الباشا فاصبحوا يرونه واحدا منهم ، لا يمتاز من بينهم بشىء ، فهو رجل من الرجال يذهب ويجىء ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويتكلم بالصواب حيناً وبالخطأ أحيانا ، وإذن فلم يستأثر من دونهم بهذا النعيم ! ولم يستطل عليهم بهذا السلطان ، ولم يسعد حتى تبطره السعادة ويشقون هم حتى يضطرمم الشقاء إلى اليأس والقنوط ، ولم

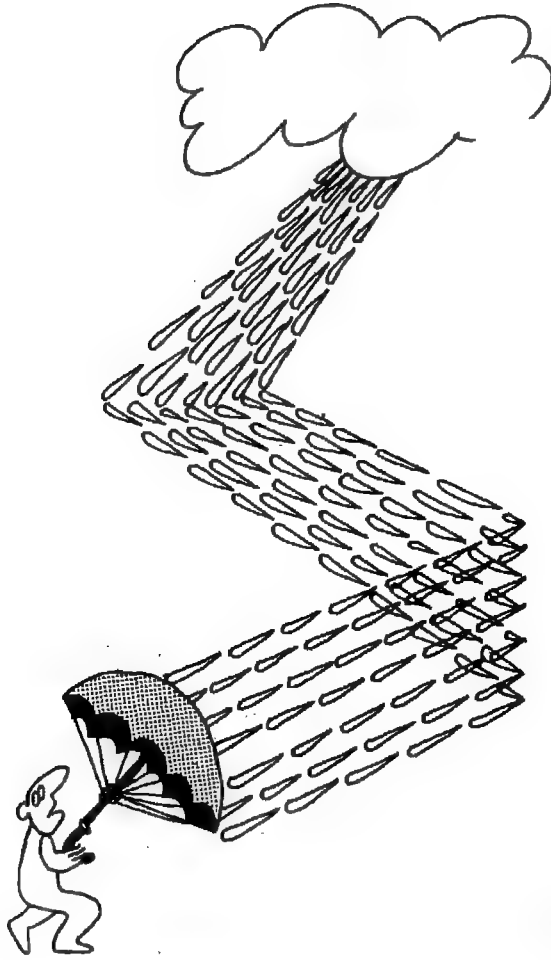
تبسم الحياة له حتى يضيق بهذا الابتسام ، وتعبس الحياة لهم حتى يهلكهم هذا العبوس ، ولم يكسل هو حتى يضطره الكسل إلى المرض . ويعملون هم حتى يضطرهم العمل إلى الموت .

شاعت هذه الأحاديث بين أهل القرية فامتلات بها مجالسهم حين يجتمع بعضهم إلى بعض وامتلات بها بيوتهم حين يخلو كل منهم إلى أهله وذوى قرابته ، وارتقت إلى الباشا قصافته قلقا قد ملأ قلبه الخوف والاضطراب ، وإذا هو يؤثر أن يترك القرية إلى القاهرة ، ليتحدث عن محنته هذه في قريته إلى بعض أولى الراى من أصحابه ولا يكاد يبلغ القاهرة ويفضى بذات نفسه إلى بعض نظرائه حتى يسمع منه حديثا ليس أقل من حديثه خطرا ، ولا أيسر منه شيئا ، فاهل القرى كلهم يتحدث هذا الحديث ، وأهل المصانع كلهم يتحدث هذا الحديث ، والعاملون في الدواوين والمصارف والشركات ، والعاملون في الشوارع والطرق والمواصلات كلهم يتحدث هذا الحديث قد اختلط الأمر وعظم الشك ، وشاع في النفوس أمل لاحد له ، وشاع في النفوس ياس لاحد له ، وشاع في الجو كله سحاب لايدرى عما ينجلي ، أعن أمن ورخاء ، أم عن بؤس وشقاء . وكان عدد السكان في مصر ثمانية عشر من الملايين فاصبح عددهم ستة وثلاثين مليوناً ، لأن كل فرد من أفراد هؤلاء المصريين قد وكلت به فتاة حسناء حازمة صارمة باسمه تبعث ابتساماتها في القلوب أملا مخيفا . وكره الباشا أن يعود إلى قريته لأنه كره فتاته تلك الحسناء في حديقته تلك الغناء . ولكنه خلا إلى نفسه ذات يوم في مكتبه المطل على النيل وأراد أن يأخذ في بعض عمله وإذا هو يحس حركة فإذا التفت رأى فتاته الحسناء وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة وهي تقول في صوتها ذاك الضئيل الجميل لابد مما ليس منه بد أقدم طائعا راضيا ، فذلك خير من أن تقدم كارها مضطرا .

وقد كتب الباشا إلى الشيخ يدعوه إلى القاهرة ليشاوره في بعض ما يمكن أن يصنع ليرضى الساخط ، ويأمل القانط ، ويأمن الخائف ، ويعمل الكسل ، محبا للعمل لا زاهدا فيه . قال الباشا للشيخ حين خلا إليه : ألا تنبئني عن هذا البلاء العظيم الذي نمتحن به في هذه الأيام

الشداد . قال الشيخ مبتسما : لا تسلنى أنا عن هذا البلاء وسل عنه فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتي ملأن علينا أرض مصر جمالا واما وخوفا واشفاقا . قال الباشا : ومن عسى ان تكون هؤلاء الفتيات ! قال الشيخ : لا ادري ولكنى كلما سألت واحدة منهن عن اسمها رفعت كتفها وابتسمت عن ثغر جميل وقالت ساخرة : تريد ان تعرف اسمى فاسمى هو « العدالة الاجتماعية » ..





من
فات

البرق الخاطف

أنكره ياسيدتي ان شئت او اعرفيه . فكلا
الأميرين منك سائغ ، وكلا الأمرين منك مقبول ،
وان تنكره فقد أنكرت نعم شاعرها وشاعر
الحجاز عمر بن أبي ربيعة ، وان تعرفه فقد
عرفت أسماء شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن
أبي ربيعة ، وانت ياسيدتي أديبة أريية تذكرين
من غير شك ما تحدث به فتى قريش عن صاحبتيه حيث يقول :

فتى فانظري أسماء هل تعرفينه	أهذا المغيرى الذى كان يذكر
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن	وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
فقلت نعم لاشك غير لونه	سرى الليل يحى نضه والتهجر
لئن كان إياه فقد حال بعدنا	عن العهد والإنسان قد يتغير
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت	فيضحى وأما بالمشى ليخضر
أها سفر جواب أرض تقاذفت	به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله	سوى ما نقى عنه الرداء المجر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة	وريان ملف الحداثق أخضر

فأى المذهبين تختارين ؟ مذهب نعم هذه التى أنكرت الشاعر
وجعلت تسأل عنه فى سحرية تمازجها العطف . أم مذهب أسماء التى
عرفته وجعلت تحدث عنه فى عطف يمازجه الاعجاب ؟ وإنى لمسرف
حين ألقى عليك هذه الأسئلة وأخبرك بين هذين المذهبين فأنى
لم أسمع منك منذ ساعة إلا إنكار لصاحبنا هذا المسكين ونعيا عليه ،
تريئه كثير الكلام وقد كان كثير الصمت ، وتريئه كثير الحركة وقد كان
صاحب رزاة ووقار ، وتريئه مقصرا فى ذات الصديق وقد كان من أشد
الناس وفاء للصديق ، وتريئه مستكبرا مستعليا وقد كان متواضعا
غاليا فى التواضع وتريئه يقول غير الحق وقد كان لا يؤثر على الحق

شيئا ، وترينه مداورا مداورا وقد كان أبغض الناس للمداورة وأزهدهم في المناورة وأحرصهم على أن يسلك إلى ما يريد طريقا مستقيمة غير منحرفة ، ومستوية غير ملتوية ، وواضحة لا يحتاج سالكها إلى الهدى والإعلام . وترينه حذرا هيبا ومتحفظا محتاطا وقد كان جريئا مقداما ، لا يخاف شيئا ولا يخاف أحدا ولا يعدل عن الصراحة الجلية إلى الإشارة الغامضة أو التلميح الذى يلبس فيه الحق بالباطل والصواب بالخطأ والصحيح بالمحال .

وقد كنت تعرفين وجهه مشرقا صافى الإشراق مبتهجا نقى الابتهاج مبتسما حلو الابتسام ، فأصبحت ترين وجهه مظلمًا تمام الإظلام تغشاه بين حين وحين سحابة رقيقة ضئيلة من إشراق طارئ لا يثبت أن تتمحى أبعثه ويعفى الإظلام على آثاره وأصبحت ترين فى عينيه حزنا ملحا حالكا يصور نفسا مكلومة حزينة كأنما يغمرها ندم متصل لا تكاد تخلص منه إلا لتعود إليه . وأصبحت ترين على ثغره ابتسامة تمر سريعة بين حين وحين تحاول أن تثبت فلا تستطيع . كأنما وكل بها من أعماق الضمير حرس يابون عليها أن تثبت أو تستقر . وقد ترين على ثغره ابتسامة تقيم فتطيل الإقامة ولكنها ابتسامة شفافة لا تشف عن نفس مبتهجة أو قلب مطمئن أو ضمير راض وإنما تشف عن كآبة وسام وقلق ، هي ابتسامة مجلوبة قد تعلم صاحبنا أن يضعها على ثغره وإن ينزعها عنه كما يضع صاحب العمامة أو الطربوش عمامته أو طربوشه على رأسه . متى شاء وينزعها متى شاء . ترين أشياء كثيرة تنكرينها لأنك لم تعهدينها من قبل وتلتمسين أشياء كثيرة فلا تجدينها وقد كنت لا ترين غيرها من قبل وأنت من أجل ذلك تنكرين فتسرفين فى الإنكار وتلومين فتغرقين فى اللوم . وليست إلى جانبك أسماء توضح لك الغامض وتجلو لك الخفى وتقص عليك من أمر صاحبنا ما تجهلين ، والإنسان قد يتغير كما يقول عمر بن أبى ربيعة . وما أكثر الأشياء التى تغير الناس فتحولهم عن العهد وتنقلهم من طور إلى طور وتمحو منهم خصالا كان الأصدقاء يعرفونها وبالفونها ويكلفون بها ، وتمحو مكانها خصالا أخرى ليس للأصدقاء بها عهد وليس من شأنها أن تحسن فى

نفس الصديق . وقد نبت عين نعم عن عمر لانها :
رأت رجلا جواب أرض تقاذفت به فلوأت فهو أشعث أغبر
قد أكثر السفر والح فيه يسرى فى الليل ويهجر فى النهار فأدركه
ما يدرك أمثاله من الجهد والشعث . وجعلت أسماء تبين ذلك لصاحبتها
فى عطف وإعجاب . أما صاحبنا فلم يسر فى الليل ولم يهجر فى النهار
ولم يدركه ما يدرك المسافرين من الجهد والشعث ، وإنما أدركه شيء
آخر هو الذى تسالين عنه فلا تهتدين إليه . وكيف تعرفينه أو تهتدين
إليه وأنت مشغولة بحياته هذه الباعمة فى قصرك هذا الأنيق ، ومن
حوله جنته هذه ذات الأشجار الباسقة والأغصان المتكاثفة وذات الزهر
النضر والعشب الجميل ومع ذلك فلصاحبنا قصة رائعة شائقة
لو عرفتها لرحمته وعطفت عليه ، وله حديث رائع لو سمعته لمنحته
شيئا غير قليل من الرثاء والإشفاق وستسأليننى من غير شك أن أقص
عليك قصته وأنبئك بحديثه . فانت كغيرك من السيدات تمتازين بهذه
الخصال التى تملأ القلوب لكن حبا ومنكن خوفا وبكن إعجابا . فيك
رحمة لا حد لها وفيك قسوة لا حد لها . وفيك رغبة فى الاستطلاع
لا تعرف لنفسها حدا تنتهى إليه ، ولست أرى بأسا من أن أقص عليك
القصص وأنبئك بالحديث . ولكنى أخشى ألا تصدقنى ما سألقى إليك من
قول .

فقصة صاحبنا غريبة حقا . لو انها قصت على الناس فى الدهر
القديم لصدقوها ولاطمأنوا إليها ، لأن عقول الناس فى الدهر القديم
كانت نقية لم تكدرها الحضارة ، وكانت قوية لم يصفعها العلم . فاما
فى هذا العصر الذى نعيش فيه فقد كثرت الأعاجيب التى ترى وتسمع
وتحس حتى أصبح الناس لا يصدقون الأعاجيب التى تقص عليهم
إلا إذا رأوها وسمعوها أو أحسوها . وقد حاولت أن أرى أعجوبة
صاحبى بنفسى فلم أفلح ، وقد كررت المحاولة مرة ومرة منذ حدثنى
بقصته فلم أبلغ من ذلك شيئا . حاولت ذلك معه وحاولت ذلك منفردا فلم
أظفر إلا بالإخفاق إن كان الإخفاق شيئا يمكن أن يظفر به الناس ، وأنا
مع ذلك أصدق القصة ولا أنكرها ، لأن صاحبى هو الذى قصها على

ولانه لم يعودنى أن يحدثنى بغير الحق ، ولانه قص على قصته اثر خروجه منها وقبل أن تظهر عليه هذه الخصال التى تنكرينها ، ولان عقلى بعد هذا كله مستعد لتصديق مثل هذه القصص لانى عاشرت القدماء حتى اصبحت واحدا منهم . فعقلى نقى لم تكدره الحضارة التى لا آخذ منها كما تعلمين إلا بمقدار ، وعقلى قوى لم يضعفه العلم الذى ليس لى منه كما تعلمين حظ قليل أو كثير .

وكان بدء ما الم بصاحبى من الخطب انه خرج ذات يوم مع الصبح يلتمس الرياضة ويسلى عن نفسه بعض الهم . فترك المدينة وامعن فى الصحراء يمضى امامه هادئا مطمئنا ، مستمتعا بهذا الحر الهادى الذى تشعه الشمس حين تصحو وتصفو فى فصل الشتاء .. ولصاحبى عهد بالادب القديم فقد جعل يدير فى نفسه بعض ما حفظ من شعر القدماء ذاك الذى يصور الصحراء وما فيها من وهاد ونجاد وما يضطرب فيها من حيوان وما يترقق فى جوها من سراب . وقد مضى فى رياضته تلك وقتا لا يعرف اطلال ام قصر ، لانه نسى نفسه . وامترج بما حوله ولكنه تنبه فجأة وقد فقد حر الشمس ، وينظر فإذا سحب متكاثفة تاتى من الشمال بطيئة ثقيلة يزحم بعضها بعضا وقد هم أن يرجع ولكنه يرى برقاً يخطف ويسمع رعدا يقصف ثم لا يعرف من أمر نفسه شيئا ، وإنما هو شعور غريب غامض أشبه شىء بشعور النائم حين يداعبه حلم لذيذ . فهو يرى كان هذا البرق الذى كان يخطف قد خطفه هو ، فرفعه فى الجو رفعا سريعا رشيقا حتى انتهى به إلى شىء يشبه أن يكون فراشا موطا وثيرا . وهو يحس كان هذا الفراش يسعى به سعيا رقيقا ولكنه سريع يذكره بعض ما كان يجد حين كان النوم يداعبه وهو فى مضجعه من السفينة والجو صفو والبحر هادى والسفينة تجرى فى يسر تعينها عليه ربح رخاء . ثم يحس كأن سريره ذاك الساعى فى الجو قد استقر على مكان ثابت مطمئن وكان صورا غريبة تشبه الناس ولا تشبههم قد حفت به فاجلسته وجعلت تتحدث إليه بلغة غريبة يفهم معانيها ولا يحقق الفاظها ولكنه يؤكد أنها ليست اللغة العربية التى يتكلمها عامة وقته وليست اللغة الفرنسية التى

يتكلمها بين حين وحين . وليست لغة من هذه اللغات التي يسمع الناس يتحدثونها من حوله فيفهمها قليلا أو كثيرا ، وإنما هي لغة غريبة حقا ان أمكن أن تشبه بشيء فقد تشبه بما ياتلف من هفيف النسيم وحفيف الأغصان وخرير الماء وغناء الطير ، وهو مع ذلك يفهم هذه اللغة حق الفهم لا يجد في ذلك مشقة ولا عناء كأنما تتبلغ الألفاظها الغريبة قلبه وعقله ، فتستقر فيهما واضحة جلية دون أن تمر بأذنيه ، ودون أن يحتاج لفهمها إلى قليل أو كثير من التفكير . وقد حفظ صاحبي بعض ما استقر في نفسه من معاني هذه الألفاظ التي كانت تساق إليه أو تلقى في نفسه إلقاء . فقد ألقى في نفسه انه قد اختطف من وطنه اختطافا ونقل إلى الوطن السعيد الذي لا يبلغه الناس لانهم لا يجدون سبيلا إليه والذي لا يستطيع الناس أن يحتملوا الحياة الطويلة فيه لانهم أضعف من أن يثبتوا لما فيه من حقائق الأشياء . وأول حقيقة عرضت عليه من حقائق الأشياء هذه قرأها رأى العين ، ولو أراد لتحدث إليها وسمع منها ولكنه لم يحتج إلى ذلك لانها سعت إليه في خفة ورشاقة فقبلت بين عينيه ، ولم تكد تفرغ من قبلتها حتى ملأت قلبه حبا لها وإيمانا بها واطمئنانا إليها . أقول أول حقيقة من حقائق الأشياء هذه هي النجاح . النجاح الذي يبلغ الإمال ويقضى الآراب ويرضى الحاجة إلى ارتفاع المنزلة وعلو المكانة ، ويرضى الحاجة إلى بسطة اليد وامتداد السلطان . ويرضى الحاجة إلى الامتياز والتفوق ، وإلى الاستعلاء والتغلب ، والنجاح الذي يعيش الناس له ويجدون في طلبه ويكدون في التماسه ولكنهم لا يبلغونه إلا ليردوا عنه ، ولا يظفرون به إلا ليصد عنهم لانهم لا يعرفون له حقه ولا يلتمسونه من مظانه ولا يسلكون إليه الطرق التي تمكنهم منه وتسلمتهم عليه . النجاح الذي يطلبه الناس بما ورثوا من أخلاق وبما ألفوا من عادات وبما حفظوا من تقاليد . يطلبونه من طريق الصدق والوفاء ، ويطلبونه من طريق النصيح والإخلاص ، ويطلبونه من طريق العلم والمعرفة ، ويطلبونه من طريق الجهد والمشقة ، ويطلبونه من طريق العمل المتصل والاجتهاد المنهك للقوى المقصر للأعمار ، ويطلبونه من هذه

الطرق فلا يصلون إليه . لأنها طرق قديمة قد ذهبت معالمها وأصبح سلوكها حقما والسعى فيها جورا عن القصد وانحرافا عن الجادة وتكلفا لما لا يفيد .

ولو أنهم سلكوا إليه طرقه الطبيعية التي لا تؤدى إلا إليه والتي لا يستطيع سالكها أن يرجع ادراجة ، وإنما هو يمضى من فوز الى فوز ومن ظفر إلى ظفر . ولو أنهم سلكوا إليه هذه الطرق لبلغوه فى غير جهد ولاخذوا بحظهم منه فى غير عناء وهم صاحبي أن يسأل عن هذه الطرق الطبيعية ولكنه لم يحتج إلى السؤال ، فقد ألقى فى نفسه أنها نقائص الطرق المألوفة فهى لاتحب صدقا ولا وفاء ، وهى لا ترضى عن النصيح ولا الإخلاص ، وهى لاتستقيم للعلم والمعرفة وهى لا تحتمل الجد والكد وهى لاتطبق العمل والاجتهاد ، وإنما هى تحب نقائص هذه الخصال جميعا . وهم صاحبي أن يسأل وكيف التخلص من الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والتقاليد المحفوظة ؟ ولكنه لم يحتج إلى أن يسأل هذا السؤال . فقد ألقى فى نفسه أن شقاء الناس لاياتيهم من أنهم لايقدرّون على الاحتفاظ بخصال الخير أو مايسمى خصال الخير . وإنما يأتّيهم من أنهم لايقدرّون على أن يتخلصوا من خصال الخير هذه . وإنما هم دائما أشبه بالكرات تتقاذقها الفضائل والردائل أو مايسمى الفضائل والردائل . ولو أنهم خلصوا للفضائل لسعدوا لأنهم يستريحون إلى اليأس . ولو أنهم خلصوا للردائل لسعدوا لأنهم يبلغون من الحياة الدنيا كل ما يريدون وشك صاحبي غير طويل . ثم هم أن يسأل كيف السبيل إلى أن يخلص الانسان من الفضائل ويبيع نفسه للشيطان ولكنه لم يحتج إلى أن يسأل هذا السؤال فقد قدمت إليه كأس صغيرة جميلة فيها شراب كدر اللون . وقيل له احس هذه الكأس حسوا فانك ان اتيت على آخرها انسلت من الخير كما تنسل الشعرة من العجين وانحطت عنك أثقاله كما تنحط أثقال النهار عمن يشمله نوم الليل . قال صاحبي وقد شربت هذه الكأس فى مهل فكنت كأنما اشرب نارا تحرق جوفى تحريقا ، ولكنى كنت أجد لهذه النار المحرقة ، لذة لا يستطيع أن أصورها وروحا لا أدري كيف أصفه ، فلما فرغت من

شرب الكاس سمعت غناء لم أسمع أجمل منه قط ولم أسمع أبشع منه قط.

ولست أدري وما أظن أحد يدري كيف يجتمع الجمال الرائع والقبح المروع فى صوت واحد . ولكننى سمعت هذا الصوت ثم أنسيت نفسى ، ثم أفيق وإذا أنا فى مكاني ذاك من الصحراء ولكن لا أرى الشمس ولا أحس حرها ولا أرى السحب المتكاثفة تسعى من الشمال بطيئة متناقلة ، ولا أرى برقًا خاطفًا ولا أسمع رعدًا قاصفًا وإنما أرى ليلاً مظلمًا قد أطبق على الصحراء أطباقًا واضطربت فيه أشعة ضئيلة تأتي من هذه المصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا . وقد عدت إلى المدينة بعد جهد . والحمد لله على أن أهلى لم يكونوا فى المدينة وإنما كانوا فى الريف . ولو قد رحلت اليهم آخر الليل مجهودًا مكدودًا اشعت أغبر ، طائر اللب مغرق النفس ، لا تكرونى أشد الانكار . ولكن بينهم وبينى حساب عسير لست أدري كيف أخلص منه .

ثم أطرق صاحبى إطراقة طويلة عميقة رفع رأسه بعدها إلى وهو يقول : « وصدقنى انى انكر نفسى أشد الانكار منذ تلك الرحلة الغربية . ويخيل إلى انى لا أحييا مع الناس ، وإنما أنا فى حلم متصل ، والغريب انى لم أكد استقبل النهار واتقدم فيه حتى دعيت إلى شىء أرجو أن يكون وراءه النجاح »

وأنت بعد ذلك يا سيدتى تعرفين من أمر صاحبنا مثل ما أعرف قالت السيدة وكانت أديبة أريية : « فاحذر ان تتعرض لهذا البرق الخاطف فإنى أحب أن أراك دائمًا كما أنت » . قال محدثها : « هيهات ياسيدتى أنا أثقل وزنا من أن تخطفنى البرقة » .





عنينة ١٩

حديث القلوب

لا أريد أن أسميه لأنى لا أريد أن يعرفه الناس ،
وحسبى أنه سيعرف نفسه . ولو استطعت أن
أخفيه على نفسه لفعلت فأنا أحبه أشد الحب ،
وأثره أعظم الإيثار ، وأكره أن يأتية من نحوى
إيسر الجهد وأهون العناء وأقل الأذى . وارى
أنى لا اتكلف له ذلك ولا أتصنعه وإنما هو حق
الصديق على الصديق ودين الخليل عند الخليل . ومالى لا أرى له هذا
الحق ولا اعترف له بهذا الدين وقد استقبلنا الصبا رفيقين واستقبلنا
الشباب زميلين واستقبلنا الكهولة صديقين .. لم تستطع حوادث الأيام
على كثرتها واختلافها أن تثير بيننا إيسر الخلاف فضلا عن أن تفرق
بيننا فى الآراء والأهواء .

نعم لقد استقبلنا الصبا رفيقين فجلسنا معا على حصير الكتاب ،
واختلفنا معا بين يدي سيدنا لايكاد أحدنا يفرغ من تلاوة ما حفظ من
القرآن حتى يقوم الآخر مقامه ويتلو مثل ما تلا ثم نلتقى بعد ذلك فى
مجلسنا ذاك فى ركن من أركان الكتاب فننتذكر ماسمعنا من الفاظ اللوم
والتشجيع التى كان يسوقها إلينا سيدنا فى صوت يغلظ حيناً حتى
كانه الرعد ويرق حيناً حتى كأنه النسيم ، وقلدنا هذه الحركات الطريفة
التي كان يأتيناها بإحدى يديه ليحدث بها صوتاً متلاحقاً سريعاً يحثنا به
على أن نكر التلاوة كرا ليتبين مقدار حفظنا للقرآن حتى إذا صليت
العصر تركنا الكتاب غير ضيقين به ولا أسفين على تركه ، وإنما نحن
نتركه مفكرين فى العودة إليه إذا كان الغد ، ونتركه مبتهجين
بأنصرفنا عنه إلى هذا اللعب الذى سنستأنفه فى زاوية من زوايا الدار
أو فى ناحية ما على شاطئ القناة .

نعم واستقبلنا الشباب زميلين نختلف إلى مجالس العلم في الأزهر الشريف نجد حين نستعد للدرس وحين نسمعه وحين نجادل كل الاساتذة فيه ، ونلهو حين نفرغ من ذلك وحين نأخذ في العبث بأساتذتنا وزملائنا وماكنا نرى ونسمع مما كانوا يعملون ويقولون . لا أذكر ولا أراه يذكراننا اختلفنا يوما مافى أمر ذى خطر ، وانما كنا متفقين دائما مؤتلفين دائما لانتكلف اتفاقا ولا ائتلاقا ، وانما تجرى أمورنا هيئة ليثة ، وتمضى الحياة بنا على رسلها رفيقة رقيقة ، حتى لقد كنا نرى مايثور بين الأصدقاء والزملاء من هذا الخلاف العارض الذى يباعد بينهم من حين إلى حين فنتكلف الضيق بحياتنا هذه التى لاتعرف خلافا ولا افتراقا فى الراى . ثم لانبث ان نثوب إلى الضحك والابتهاج والرضى بحياتنا هذه الراضية المطمئنة .

وقد فرقت حوادث الأيام بين شخصينا أعواما طوالا او اقصارا ولكنها لم تستطع ان تفرق بين نفوسنا وضماثرنا ولا ان تخالف بين أهوائنا وأرائنا ، وانما لبثنا متفقين على البعد كما كنا متفقين على القرب ، واتصلت بيننا رسائل مازلنا نعود إليها بين حين وحين كلما كلفتنا الأيام من أمرنا شططا ، ثم التقينا بعد الفرقة وتدانينا بعد التناهى واستأنفنا فى حياة الرجال مامضت عليه أمورنا فى حياة الصبية والشباب من هذا الود النقى والاخاء الرضى والتعاون على البر والمعروف .

وليست حياة الناس تخلو مما يؤذى ولاهى تبرأ مما يسوء ، وليست حياة الناس تخلو من هذه الخصومات التى تفسد عليهم أمرهم أحيانا ، وتمنحهم القوة والإيد وحب الجهاد والكفاح أحيانا . وقد عرض لكل واحد منا حظه من هذا كله ولكن الغريب ان شيئا من ذلك لم ينل أحدا منا قبل صاحبه وانما كان هذا ينالنا من قبل قوم آخرين ، فكنا نتعاون على احتمال الشر ودفع المكروه . وكان كل واحد منا يجد عند صاحبه مايجده الصديق عند صديقه من المواساة والعون والتسلية والعزاء .

ثم مضت الايام على ما تعودت أن تمضى عليه مستأنية متشابهة
حيناً ومتعجلة مختلفة حيناً آخر ، وجرت فيها الحوادث تباعد بينا
بعض الشيء . ثم لاتزال تلج في المباعدة بيننا حتى جعلنا ننفق
الأسابيع والأشهر لانتلقى ، وننفق الأسابيع والأشهر لا يكتب أحدهما إلى
صاحبه شيئاً ، ولكننا كنا على ذلك نلتقى بين الحين والحين فلا يكاد
أحدنا يلقي صاحبه حتى ينشد ضاحكا قول الشاعر القديم :
نلبث حولا كاملا كله لانتلقى إلا على منهج
فى موسم الحج وماذا منى واهله ان هى لم تحجج
ثم نستأنف حديثنا كاصفى ما يكون الحديث بين الصديقين
الصفيين :

وكانت أكثر احاديثنا لا تكاد تتصل بحاضرنا ولا بحاضر الناس
ولا تكاد تتصل بمستقبلنا ولا بمستقبل الناس ، وانما كانت تتصل بهذه
الذكرى التى نسجت منها صداقتنا نسجا ، وصورت منها مودتنا
تصويرا وكانت هذه الذكرى الحلوة تكاد تشغلنا دائما عن حاضرنا
وحاضر الناس ، وعن مستقبلنا ومستقبل الناس . ولكننا نلتقى ذات
مساء فى هذا القطار الذى ينقل الناس من الاسكندرية الى القاهرة .
ياخذ احدهما القطار فى الاسكندرية ويأخذه الآخر فى سيدى جابر وقد
مضى القطار فى طريقه ولم يفتن أحد منا لمكان صاحبه ، ثم تكون لفظة
منه فيرانى فيسرع إلى مستبشرا مبتهجا وهى يقول ماذا ؟ أنت هنا !
والقاء مغتبطا محبورا وأنا أقول : ماذا . أنت هنا ! ثم يجلس كل منا
إلى صاحبه وما تكاد تفرغ من التحية التى تعودنا أن نتهادها حين
نلتقى حتى نأخذ فى حديث الجو ثم فى حديث السفر ثم فى حديث
القطر التى تحسن الأبطاء أكثر مما تحسن الإسراع ، وتحسن التأخير
عن مواعيدها أكثر مما تحسن الوفاء بهذه المواعيد . ثم عن
الاسكندرية التى تزدحم بالقاصدين اليها والنازحين عنها ، وتموج
بالمقيمين فيها ، ثم عن جو الاسكندرية وجو القاهرة والموازنة بين
ما يكون بينهما من اختلاف فى الصيف ومن اختلاف فى الشتاء ومن
توافق فيما يكون بين ذلك من القصول . ثم نأخذ فى حديث الصحف

الجادة والهائلة وفى حديث الأدب القديم والأدب الجديد ، وننفق هذه الساعات التى ينفقها المسافرون بين القاهرة والاسكندرية متحدثين عن كل شئ إلا عن انفسنا ملمين بكل شئ إلا بأحداث السياسة . وما كان أكثر ما نلتقى فلا نتحدث إلا عن انفسنا ، وما كان أكثر ما نتحدث عن انفسنا فتعيب أثناء الحديث بالسياسة وأصحابها ونتخذ من هذا العبث ألوانا من المتاع الرفيع . أما اليوم فقد ألقى بيننا وبين انفسنا حجاب صفيق وألقى بيننا وبين السياسة والسياسيين ستار كثيف ، وجعلنا نتحدث كما يتحدث الناس حين يلتقون على غير معرفة موثقة أو مودة متينة قد برئت من التكلفة والقيت عنها الحجب والاستار ، فهم حراس على ألا يقول بعضهم لبعض ما يؤذى أو يسوء . لماذا تعمدا أن نجتنب الحديث عن ذات انفسنا ، ولماذا تعمدا أن نجتنب الحديث حتى عن حاضرننا وحاضر الناس وحتى عن مستقبلنا ومستقبل الناس ، ولماذا انفقنا هذه الساعات الطوال لانتحدث إلا فى هذه الموضوعات التى لا تحطم شيئا كما يقول الفرنسيون ، ولماذا نسى كل واحد منا أن ينشد حين رأى صاحبه قول الشاعر القديم :

نلبث حولا كاملا كله لا نلتقى إلا على منهج
فى موسم الحج وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج
سل السياسة عن هذا فهى التى تستطيع أن تخبرك الخبر اليقين ،
وسل السياسة عن هذا فهى التى تحسن التفريق بين الأصدقاء
والتقريب بين الأعداء ، وهى التى تحسن أن تنسى الناس أنهم كانوا
رفاقا فى الصبا وزملاء فى الشباب وأخلاء فى الكهولة . وسل السياسة
فهى التى تحسن أن تقيم المنافع العاجلة مقام المودة الباقية ، وأن
تشغل الناس بساعاتهم التى هم فيها عن ماضيهم ذاك الطويل ، وأن
تشغل الناس بما يقضون من منافع ، وما يرضون من مآرب ،
وما يحققون من آمال عما وثقت الأسر بينها من عرى متينة وصلات كان
يظن انها أبقي على الزمن الباقي من الزمن .

وهل من الحق أننا لم نتحدث فى هذه الساعات الطوال عن ذات
انفسنا ، وهل من الحق أننا لم نذكر فى هذه الساعات الطوال تلك الأيام

الحلوة التي امتلأت بلذات الصبا والشباب . وهل من الحق اننا لم نعبث بالسياسة والسياسيين واننا لم نعبث بانفسنا لانها اتصلت بالسياسية والسياسيين ؟ وهل من الحق اننا انفقنا هذه الساعات الطوال في هذه الاحاديث التي كنا نكره ان نخوض فيها والتي يستعين الناس بها على ان يحتمل بعضهم بعضا ، وهل من الحق ان هذه الاحاديث التي انفقنا فيها الساعات الطوال لم تعن احدنا على ان يحتمل صاحبه ، فكنا نستنجد بالسجائر التي نكثر من تحريقها ، وكنا نستنجد بما عند صاحب البولمان من القهوة والليمون والبرتقال . وكنا نستنجد بتكلف الفكاهة واختراع الدعاية نجذبها من شعورها جذبا كما يقول الفرنسيون . وهل من الحق ان احدنا لو عرف انه سيلقى صاحبه في القطار تقدم سفره او اخره حتى لا يكون هذا اللقاء وحتى لا يكون الاضطرار إلى هذه الاحاديث الفارغة التي لاتغنى عن اصحابها شيئا إلا انها تعينهم على قطع الوقت وتمكنهم من ان يحتمل بعضهم بعضا . نعم كل هذا حق ، ولكن هناك حقا آخر لم اشك فيه ولم يشك فيه صاحبي لحظة . وهو ان السنتنا كانت تهذى بما لا يغنى وان اذاننا كانت تتجرع هذا الهذيان ، وان قلوبنا في اثناء ذلك كانت تتحدث بما لم تكن تتحدث به السنتنا ، وأن نفوسنا في اثناء ذلك كانت تستمتع بما لم تكن تستمتع به اذاننا . فقد كان كل واحد منا يكذب على صاحبه اشنع الكذب بما يلقي إليه من هذا الكلام الذي لا طائل فيه والذي لا يدل على شيء . وكان كل واحد منا يصدق صاحبه أعذب الصديق بهذا الحديث الذي لم تكن تجرى به الألسنة ولم تكن تلتفاه الأذان ، وانما كانت تخفق به القلوب ، وتستمتع به النفوس ، وتجد فيه العقول راحة وروحا وتجد فيه الضمائر رضى وامنا .

اما أنا فقد كنت أرانى وما اشك في ان صاحبي قد كان يرى نفسه معى في ذلك المكان الضيق امام تلك الدار الصغيرة على شاطئ القناة ، وقد اظلمت شجرات بسطت أغصانها إلى ماء القناة من ناحية اخرى ، وقامت عليها الطير تملأ الجو بغنائها المتصل الرفيع وخفق أجنحتها المتقطع . ونحن نأخذ فيما تعودنا ان نأخذ فيه من حديث وقد

رفعنا أصواتنا ليسمع كل منا صاحبه ، فقد كان غناء الطير ، وحفيف الورق ، وهفيف النسيم ، وتصايح الصبية من حولنا ، وتنادى الرجال والنساء هنا وهناك ، كان هذا كله يوشك أن يحول بيننا وبين الحديث . نعم كنت أراى مع صاحبى فى هذا المكان وكنت أسمع قلبى يلقى إلى قلب صاحبى حديث المودة والأخاء صفوا عفوا وعذبا نقيا . وكنت أتلقي من قلب صاحبى مثل ما كنت ألقى إليه ، على حين كانت السننتنا تهذى بسخيف القول لأن ظروف الحياة قد أخذت تعلم الناس أن يخفوا المودة ويظهروا النفاق ، وأن يسروا الحب ويعطنوا البغض ، وأن يكذب بعضهم على بعض حتى فى ذات أنفسهم ، وأن يخيل بعضهم إلى بعض أن الأسباب بينهم مقطعة وأن الأسباب بينهم لموصولة . ولكن مهلا . ان اخفاء المودة يوشك أن يمحوها ، وأن أسرار الأخاء يوشك أن يقتله وان التصريح بالكذب والنفاق ، وإعلان التباعد والخصومة يوشك أن يجعل الكذب والنفاق والتباعد والخصومة اصولا لما نستأنف من حياة .

وقد وصل القطار إلى القاهرة ونهضنا يريد كل منا أن يروح إلى أهله ولم يقل أحد منا لصاحبه شيئا بلسانه لأن لسانه لم يكن يقول إلا كذبا ، وقال كل واحد منا لصاحبه كل شيء بقلبه لأن قلبه لم يكن يقول عنه إلا صدقا ، وراح كل واحد منا إلى داره وان قلبه ليتقطع حسرات لأنه لا يستطيع أن يبين عما فيه من حب دفين . ابلغ الأمر بنا أن نخافت بالمودة ونجهر بالنفاق ؟





أضفك أحلام

راى فيما يرى النائم كأنه يسعى متروضا على
شط دجلة حين اخذ الاصيل يحسر عن الأرض
والسماء فى اناة وريث ضوءه الشاحب الحزين .
وكان يسعى فى جنة فسيحة بعيدة الأرجاء ،
رائعة الحسن ، قد اختلفت مناظر مافيها من شجر
وثمر وزهر وعشب . فهو يتنقل بين هذا كله
مستأنيا متمهلا يقف عند هذا اللون من الوان الزينة التى اتخذتها هذه
الجنة فيطيل الوقوف ، وينظر إليه فيطيل النظر . ولا ينتقل عنه
الا حين يستيقن أنه قد رسمه فى قلبه رسما صادقا . وصوره فى ضميره
تصويرا دقيقا . وكأنه كان يحس إحساسا خفيا لا يكاد يعلمه أنه حالم
لا عالم . فكان يريد أن يستبقى فى نفسه هذا الحسن البارع الذى يراه
فى هذا الجمال الرائع الذى يتمتع به ، لينعم بهما إذا ردت اليقظة إلى
هذه الحياة البغيضة التى كان يضيق بها أشد الضيق ، لأنها كانت
تصور له آمالا عراضا ، وتقعده عن بلوغ هذه الآمال . فكان يجد الألم
الممض والعناء الثقيل فى هذا الرجاء الذى ينفسح له وهذا الياس
الذى يقعد به . وكان ألمه يزداد شدة وحزنه يزداد لذعة حين يرى
مواكب هؤلاء الأمراء والوزراء والكتاب واصحاب المكانة فى قصر
الامين والمأمون ، فتنازعه نفسه إلى أن يكون واحدا منهم يشاركهم فيما
يستأثرون به من الغنى والسلطان والجاه . ولكنه ينظر فإذا الأسباب
بينه وبين ذلك مقطوعة لاتريد أن تتصل . ومن أين لفتى من اوساط
الناس وعامة اصحاب التجارة فيهم أن يرقى إلى الكتابة أو الوزارة
أو قيادة الجند .

فكانت حياته متفصصة بهذا الأمل البعيد واليأس القريب . فلا غرابة حين رأى ما رأى فى أحلام الليل ، أن يحرص على من يستبقى هذه المناظر الجميلة ، وهذه المحاسن الفاتنة ، ليتسلى بها إذا استيقظ عن يأس لايريم وأمل لاينال .

وأنه ليتنقل فى حلمه بين هذه المناظر الخلابة الساحرة ، إذا هو يرى جارية حسناء ، فاتنة الحسن تنقل مثله بطيئة متمهلة فى هذه الجنة الرائعة . ولا يكاد يرى هذه الفتاةحتى تقع من قلبه موقع الحب فتملأه حتى كأنه لايستطيع أن يشتمل غيرها شيئا آخر . ثم يحاول أن يدنو منها ليتحدث إليها ، ولكنها تنأى عنه مسرعة وهى تقول فى صوت عذب ، ولفظ حلو . هيهات هيهات ، لم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى . ثم ينظر فإذا هى قد غيبت عنه ، وإذا قلبه قد خلا منها ولم يستبق إلا صورة ضئيلة جدا ان امتازت بشيء فإنما تمتاز بالفتنة المغرية والقسوة المؤسفة ويمضى فى طريقه هادئا ينحدر نحو النهر فى ببطء فلا يكاد يخطو خطوات حتى يرى جارية أخرى ليست أقل من صاحبته الأولى رواء ولا بهاء ولكنها أكثر منها زينة ، وأحسن منها شارة ، وإذا هى تلقى إليه نظرة تضرم فى قلبه نارا أى نار ، فيرنو إليها من بعيد ، ويريد أن يدنو منها لينظر إليها من قريب ولكنها تنأى عنه مسرعة وهى تقول : هيهات هيهات لم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى . ثم تغيب عنه كما غيبت عنه صاحبته الأولى ولكنها قد تركت فى قلبه صورة ضئيلة جدا ، واضحة جدا ، يرى فيها سحر الجمال وآية النعمة والثناء ، ويمضى فى طريقه منحدرًا إلى النهر وإذا جارية ثالثة ليست أقل من صاحبتيها فتونا واغراء ولكن فيها استعلاء وتكبرا وشيئا من غلظة لو كان فى رجل لبغضه الناس . ولكنه يدعو إليها أشد الدعاء ، ويرغب فيها أعظم الترغيب . ولا يكاد يراها حتى يجن بها جنونه . وإذا هو يحاول أن يدنو منها ليجثو بين يديها ، وليرفع إليها الطاعة والعبادة ، كما تقدم الطاعة والعبادة إلى الأصنام : ولكنها تنأى عنه مسرعة ، ونابى حتى أن تقول له مثل ما قالت صاحبتيها من قبل . إنما تشير إليه إشارة فيها كثير من الكبرياء أن قف ، فلم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى .

وقد أخذ الفتى ينكر هذا الحلم العجيب وهو مغرق فيه لم يفق منه ، وكاد انكاره لهذا الحلم أن يرده إلى اليقظة ، لولا أن صورة تترأى له فيثوب إليها ، وإذا جارية رابعة ليست أقل من صاحباتها دعاء للقلب ، واستهواء للنفس لولا أنها لاتنظر إلا شذرا ، ولولا أن كل ما يظهر على وجهها من هذه الآيات التي تصور دخيلة النفس ، وأعماق الضمير ، لا يدل إلا على الغلظة والغلطية وسوء الخلق ، وهي مع ذلك تفتن كل الفتون وتملأ قلبه هيما وشوقا وهو يريد أين يستعطفها . ولكنها عنه مسرعة وهي تشير في أباء وجفاء ، أن قف فلم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى .

وقد أحس الفتى حسرة مؤذية ولوعة حرقت قلبه تحريقا وجعل يتحدث إلى نفسه في هذا الحلم الغريب لأنه شقى بائس قد كتب عليه الحرمان في حياته اليقظة وفي حياته النائمة . ومن بدرى لعل الحرمان أن يكون قد كتب عليه في حياته الدنيا وفي حياته الآخرة . وإذن فقيم خلق ؟ ولم قذفت به الأقدار في هذا العالم البغيض الذي لا تحلو فيه يقظة ولا نوم . ولكنه يرى امرأة نصفًا ليست بالجميلة الرائعة ، ولا الذميمة التي تنصرف عنها الأبصار . ولكنها شيء بين ذلك . في وجهها الحازم ما يدعو إلى الحب وفيه ما يحمل على الإكبار وفيه إشراق غريب يشيع في القلب رقة وفي النفس عطفًا وميلا إلى الحنان . وهذه المرأة قائمة مكانها لا تتحول عنه ولا تظهر ميلا إلى التحول عنه وقد أخذ الفتى يدنو منها شيئا ، فلم تنفر منه ولم تغب عنه ، وإنما أقامت مكانها هادئة يفيض من وجهها هذا البشر الحازم ، وهذا الحنان الذي يملأ القلب طمانينة ورضى ، وهي تشير إلى الفتى في ظرف وعطف أن أقبل ، كأنها شهدت ما لقي من أولئك الجوارى الأربع فرقت له ، واشفقت عليه ، وأحبت أن تسليه وتواسيه . ولكن الفتى يعرض عنها اعراضا ، ويصد عنها صدودا ، ويوليها ظهره وهو يقول : هيهات لن يكون بيننا لقاء ، فلست أحب العطف ولا أريد الرفق ، وليس أبغض إلى من هذا الأمل الذي لا أجد في تحقيقه الجهد المجهد ، ولا في الظفر به العناء الثقيل .

وكان أعراضه هذا قد ملأ قلبه غيظا فردّه إلى البيضة على أبغض ماكان يجب أن يستيقظ عليه من الحال . على هذا الأمل القريب الذى لا رغبة له فيه ، ولا حاجة به إليه ، بعد أن افلقت منه هذه الآمال العسيرة التى كان عليها حريصا وبها كلفا ، وقد انفق نهاره مقفرا فى هذا الحلم الغريب ، مستحضرا هذه الصور الجميلة التى تراءت له ثم نأت عنه ، منكرًا حظه من النوم والبيضة جميعا .

ويقبل أبوه مع المساء فإذا رآه فى هذا الذهول ، لأمه أشد اللوم وعنفه وأنبه أعظم التانيب ، وحثه على أن يترك حياة الأدب هذه ، التى ترقى بأصحابها إلى السحاب ، ثم لا تبلغهم من آمالهم شيئا . ورغبة فى أن يسير سيرة أسرته فيعمل فى التجارة المريحة التى لاتضيع على صاحبها وقتا ولا جهدا ولا تفكيرًا .

ولكن الفتى يمتنع عن أبيه أشد الامتناع ويظهر له الزهد فى التجارة وازدراء لحياة التجار ، ثم ينفق ليلة ساهرة لا يذوق فيها النوم ، ولا يصاحب فيها إلا القلم والقرطاس ، حتى أشرقت الأرض بنور ربها ، وفرغت بغداد من مواكب الأمراء والوزراء ، والكتاب الذين استقروا فى دواوينهم حين ارتفع الضحى . أقبل الفتى يسعى إلى ديوان الحسن ابن سهل الوزير . فما زال يتلطف حتى أدخل عليه ، فأنشده مدحة أعجبتة ، وانصرف عنه بجائزة أرضته ، وراح على أبيه آخر النهار بعشرة آلاف درهم نثرها بين يديه . قال الشيخ مبهورا مسحورا : لا ألومك بعد اليوم ، فى ازدراء التجارة والإقبال على حياة الأدباء . ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب الفتى محمد بن عبد الملك الزيات بأسباب الوزراء والكتاب ، وما زال يرقى من درجة إلى درجة ، ويسمو من منزلة إلى منزلة ، حتى نظر ذات يوم ، فإذا هو قد فوض الخليفة إليه أمور الدولة كلها . فله الأمر والنهى وإليه المنع والمنع ، وفى يده سلطان السيف والقلم جميعا ، وإذا ثروته لاتحصى ولا يقاس إليها إلا ثروة أمير المؤمنين ، ومن يدري لعله أن يكون أقدر على ابتذال المال والتصرف فيه من أمير المؤمنين . فهو يامر وينهى فى المال غير

مراجع ولا مدافع . وأمير المؤمنين لا يعطى ولا يمنع إلا عن رايه ومشورته .

وقد فرغ من غدائه ذات يوم وأوى إلى مضجعه يلتبس شيئا من راحة ، فيغفى اغفأة قصيرة ، وإذا هو يرى نفسه فى تلك الجنة الفسيحة ذات الأرجاء البعيدة . وجارية حسناء ترمقه من بعيد وهو يدنو منها ، محبا لها ، معجبا بها ، حتى إذا استطاع أن ينظر فى وجهها من قريب ، لم ينكر هذه الصورة ، وإنما ذكر كان عهده بها كان قريبا ! فهى إذن تلك الفتاة الحسناء التى رآها فى حلمه ذاك ، والتى كانت تظهر عليها آيات الغنى والسعة . وهى تبسم له وتدنو منه ، وتقول له فى صوتها العذب ولفظها الحلو : إذن أبا جعفر فقد أذن لنا الآن أن نلتقى . قال أبو جعفر جعلت فداك من تكونين . قالت فى صوتها العذب ولفظها الحلو : أنا الثروة .

ووافق أبو جعفر باسم الثغر ، راضى النفس ، يعجب من حلمه القديم ، وحلمه الجديد . ولكنه كان صاحب جد وحزم وفلسفة فلم يلبث أن هز راسه وتلا قول الله عز وجل : قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ومضى أبو جعفر يصرف أمور الدولة كما يهوى ، وعلى ما يحب أمير المؤمنين ، لايسال عن العدل أين هو ! ولا يسال عن الظلم أين هو ! وإنما يسال عن رضى نفسه ورضى أمير المؤمنين . يسلك اليهما الطرق المستقيمة والمعوجة ويركب إليهما الحزن والسهل ويضحى فى سبيلهما بالماضى والمستقبل فيجفوا الصديق ويلقاهم بالغلظة حيناً والإزدراء حيناً آخر لايعرف لهم ودا ولا يرعى لهم عهدا حتى يقول له صديقه القديم ابراهيم ابن العباس الصولى .

وكننت أذم اليك الزمان فأصبحت منك أذم الزمانا
وكننت أعدك للنائبات فما أنا أطلب منك الأمانا
ثم يقلو فى الاستعلاء ، ويمعن فى الكبرياء حتى يلقي أخا أمير المؤمنين أشنع لقاء . ويتعمد إيذاءه فى نفسه وجسمه بمحضر من أهل الديوان لأن أمير المؤمنين كان مغاضبا لأخيه .

وفى مساء ذلك اليوم خلا إلى ندمائه فاخذ من لهوه المادى ،
والعقلى بحظ عظيم ، وثقل عليه الشراب حين تقدم الليل ، فاغفى
إغفاءة قصيرة ثم أفاق ، وهويثلو قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث
أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فلما ساله بعض ندمائه عن
ذلك قال : رؤيا رايتها فى هذه الإغفاءة وما ارى إلا انها من أثر
الشراب . .

ولم تكن الرؤيا من أثر الشراب ، وإنما كان حلما يعبر حلما ، فقد رأى
نفسه فى جنته تلك ، ورأى تلك الجارية الابیة المتغطوسة تبسم له
وتسعى إليه ، وهى تقول : أدن أبا جعفر فقد أذن لنا الآن فى أن
نصطحب . ألا تذكرنى ؟ لقد التقينا ذات مساء فى جنتنا هذه على
شاطئ نهرنا هذا ، وقد كنت تريد أن تستعطفنى . قال أبو جعفر .
نفسى فداؤك من تكونين ؟ قالت : أنا الجفوة قد أجبتك منذ اليوم فأننا
صفاء لك وجفاء لأعدائك . وما ارى إلا أن الناس جميعا عدو لك .
ومضى أبو جعفر يستزيد من السلطان ويستزيد من الثراء ويستزيد
من الكبرياء والبأس حتى بلغ من العنف ما لم يبلغه وزير قبله . وسام
المسلمين من ألوان العذاب ما لم يكن المسلمون يظنون أن من الممكن
أن يساق اليهم . واتخذ تنوره ذاك الذى كان يستصفى به الأموال من
العمال ، وكان ضيقا شديدا الضيق قد أحيطت انحاؤه كلها بالمسامير
ذات الحدود المرفهة ، يدخل فيها الرجل من الناس فتأخذ المسامير
جسمه من جميع أقطاره وقد جرب أداته تلك فى أحد العمال ذات يوم
وجعل ينظر إلى هذا العذاب ويجد فيه متاعا وراحة ورضى . فلما ذكرت
له الرحمة قال : انما الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة
وما رحمت شيئا قط .

وفى مساء هذا اليوم رأى فيما يرى النائم إحدى جواريه أولئك فى
جنته تلك ، تسعى إليه باسمه ابتساما مرا وهى تقول أقبل أبا جعفر
الا تعرفنى ؟ أنا صديقتك القسوة لقد التقينا ذات اصيل فى جنتنا هذه
على شط نهرنا هذا . فقد أن لنا الآن أن نلتقى ولن يفرق بيننا
إلا الموت .

وأصبح أبو جعفر ضيقا بهذه الأحلام التي يعبر بعضها بعضا وحدث نفسه بأن يسأل فى ذلك بعض اصحاب الفلسفة لعلهم يجدون لهذا النحو من حياة الناس تفسيرا . ولكنه استكبر حتى عن السؤال وخشى أن تحدث إلى الكندى الفيلسوف فى ذلك أن يزدريه ، ويستخف حلمه ، ويتندر بقصته عند أمير المؤمنين . فلم يتحدث بشيء من أمره إلى أحد . وإنما تلا قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

ومضى أبو جعفر يصرف أمور الدولة كما يشتهى هو لا كما تشتهى أمور الدولة ، حتى ملأ الأرض رعبا ورهبا ، وحتى كان الخوف قوام الصلة بينه وبين القريب والبعيد .

وقد توفى أمير المؤمنين وانتقلت الخلافة إلى أخيه ولكن أبا جعفر مطمئن القلب رضى البال . قد امتلأت نفسه ثقة بنفسه ، وأمن المكروه كل المكروه . فهو مستيقن أن قصور الخلفاء لم تعرف قط وزيرا يشبهه قوة وإيذاء وحسن تصريف للأمور ، فلن يستغنى عنه أمير المؤمنين . ولكنه يصبح ذات يوم وقد وجد الشك اليسير الخفى إلى قلبه العنيف الأبى سبيلا . لأنه رأى فيما يرى النائم جارية من جواريه تلك تبسم له ابتسامة حزينة ، وتناى عنه رويدا رويدا . وهى تقول فى صوت تكاد تخنقه العبرات : وداعا أبا جعفر ، لقد حمدت صحبتى لك ، ومعاشرتى اياك ، ولكن قضى علينا أن نفترق . قال أبو جعفر : ويحك من تكوينين ؟ قالت انا صديقتك السطوة ، اتنسى يوم التقينا فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . وقد أفاق أبو جعفر فى ذلك اليوم مضطرب النفس بعض الشيء ، وهم أن يتلو الآية الكريمة فلم ينطلق بها لسانه وإنما الح الشك على نفسه إلحاحا .

ولم يأت أصيل ذلك اليوم حتى كان أبو جعفر فى سجن أمير المؤمنين المتوكل . قد جرد من سطوته وجفوته ، ثروته وقسوته . ورد إلى حال الشقى البائس الذى لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا . والذى يدعو فلا يستجاب له ويتمنى فلا يحفل أحد بتمنيه . ويشكو فلا يرق أحد لشكاته .

وقد صبر أبو جعفر على السجن ما كن السجن سهلا يسيرا ، ولكنه لم يلبث أن استحال إلى العذاب يصب عليه فى الليل وقد وكل السلطان به من يسامره . حتى إذا أحس منه راحة أو شيئا يشبه الراحة نخسه بالمسلات ليرده إلى الألم وليجدد عهده بطعم العذاب . وقد صبر أبو جعفر على هذا العذاب ما واثته قوته ، واحتملت طبيعته شدة البأس ، ولكنه يرى ذات يوم على باب الحجرة التى يعذب فيها من حجرات السجن صورة يعرفها ولا ينكرها ، يراها يقظان وقد كان يرى صاحباتها نائما . وهو ينظر فى وجهها نظرة المشوق إليها المفتون بها ، وكلما زاد إليها نظرا ، ازداد إليها شوقا وبها كلفا . وهو يدعو بقلبه كله ونفسه كلها ، وهى تريد أن تستجيب له وتود لو تخطو هذه الخطوات القليلة التى تدنيها منه وتقربها إليه ، ولكنها ترد عن ذلك ردا رقيقا فترسل إلى أبى جعفر نظرات حلوة فيها حنان وعطف وإشفاق . وإذا لسان أبى جعفر ينطلق بهذه الكلمة فى صوت هادئ يقطعه الألم ، الرحمة . قال الذين يعذبونه وقد ظنوا انه يسترحمهم انما الرحمة خور فى الطبيعة ، وضعف فى المنة ، وهل رحمت شيئا قط ؟ ولم يطلب أبو جعفر إليهم رحمة وانما عرف صاحبتة تلك التى رآها فى جنته تلك على شاطئ دجلة فسامها باسمها .

ومنذ ذلك اليوم لم ينطق أبو جعفر إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حتى حين أدخل فى التنور الذى كان يعذب . به الناس لم ينطق لسانه بغير هذه الكلمة حتى مات .





ضمير جانور

أوى إلى سريريه راضيا ناعم البال ، وهب من
سريره موفورا طيب النفس ، ونام بين ذلك نوما
هادئا هائئا لم تنغصه مروعات الأحلام . ولم يك
يخرج من غرفته حتى تلقاه الصبية من بينه
وبناته بوجوه مشرقة تتألق فيها نضرة النعيم ،
وثغور جميلة تبسم عن مثل اللؤلؤ المنضود ،
وحملت إليه أصواتهم الرصة العذبة تحية الصباح فردها عليهم في
صوت حلو يجرى فيه الحزم الصارم ويشيع فيه الحنان الرقيق ، وانفق
معهم ساعة حلوة يداعب هذه ويلعب ذاك ، ثم خلص منهم بعد جهد
وفرغ لنفسه ليصلح من شأنه قبل أن يغدو إلى عمله ، وكان عمله
خطيرا ، وكان اهتمامه لهذا العمل وعنايته بها أعظم منه خطرا ، لأنه
كان قوى الضمير حريصا أشد الحرص على أداء الواجب كاملا ، وإن
ابغض شيء إليه أن يتهمة أحد أو أن يتهم هو نفسه بأيسر التقصير .
ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله أقل من عنايته بالعمل
والواجب ، فقد استقر في نفسه منذ بلغ الشباب أن من كمال المروءة أن
يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة ماوسعه ذلك ، وأن تقع عليه
العين فلا تقتحمه وتبلغه الأبصار فلا تزور عنه ولا تعدوه إلى سواء ،
ذلك أدنى أن يحببه إلى النفوس ويحسن مكانه في القلوب ، ويجعل
محضره خفيفا و عشرته شيئا يطلب ويرغب فيه .

وكان الله قد منح صاحبنا حظا من جمال الخلقة وخلقه فى تقويم حسن فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماما بمنظره وشجعه الناس على ذلك بما كن يحمدن من صورته الرائعة وزيه الأنيق وحسن تلفظه فى اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشارته أكثر مما تعود الناس أن يصنعوا فكان يخلو فى غرفته كل صباح ، وكان يخلو فى غرفته كل مساء وقتا غير قصير ، ثم يخرج من غرفته ليغدو إلى عمله أو ليروح إلى ناديه ، فلا يكاد أهله يرونه حتى يحدث منظره الرائع فى نفوسهم فجاءة جديدة على كثرة معاشرتهم له ومخالطتهم إياه .

وقد خلا فى ذلك الصباح إلى نفسه فى غرفته فاطال الخلوة وغير وبدل من زيه ما استطاع التغيير والتبديل ، حتى إذا أعد نفسه للناس أو اعتقد انه أعد نفسه للناس ، وهم أن يخرج القى إلى المرأة هذه النظرة السريعة الخاطفة ، التى كان يلقيها إليها دائما كأنما يسالها رأيها الأخير قبل أن يخرج للقاء الناس . وكان رأيها الأخير دائما حسنا مقنعا يشيع فى نفسه شيئا من الرضى الهادىء والثقة المنتظرة . ولكن رأى المرأة الأخير فى ذلك الصباح لم يكن حسنا ولا مقنعا ولا مشبعا للرضى والثقة وانما كان مزعجا مروعا . فلم تكد عينه تبلغ المرأة حتى ارتدت عنها مذعورة ثم عادت إليها مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت إلى قلبه ذعرا يبلغ الهلع وإذا هو يرتد عن مكانه ويرجع إدراجه مسرعا ويحول وجهه عن المرأة تحويلا تاما حتى لاتخطىء عينه فتمتد إليها مرة أخرى . وقد أخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا سريعا متصلا ، وأخذت جبهته تنضج بشيء من عرق بارد ، وأخذت قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه وجعل الدوار يعبث به وبكل شيء من حوله حتى خيل إليه أن الغرفة كلها قد استدارت فأصبحت المرأة وراءه وأصبحت هذه المائدة التى كان يجلس إليها ليصلح من شأنه امامه . وإذا هو مضطر إلى أن يتمسك ويتمالك ، وإذا هو عاجز عن ذلك فيجلس على أول كرسي يبلغه مضطربا ممعنا فى الإضطراب حائرا لا يكاد يتبين

حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها . ومع ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيرا جدا غريبا جدا في وقت واحد . كان يسيرا لأنه لم يكن إلا ماراى في المرأة وكان غريبا لأنه لم ير في المرأة وجهه وانما رأى اقبح وجه يمكن ان يكون الله قد خلقه ، وابشع منظر يمكن ان يمتحن الله به الناس أو القرود . وقد طال جلوسه على كرسيه وأطرقه إلى الأرض وإغراقه في " حيرة ، ثم أخذ جسمه يهدأ شيئا فشيئا وجعل قلبه يستقر في صدره قليلا قليلا وامتدت يده فاترة إلى منديل امره على وجهه فجفف به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هادئة فيها شيء من غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه إليه وجعل يسخر من هذا الروح الذى ألم به فأكبر الظن أن شيئا من علة قد ألم بمعدته فافسد عليه مزاجه شيئا ما ، ثم انشأ يسأل نفسه عما طعم أمس وعما شرب فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه شيئا فقد طعم أمس وشرب كما كان يطعم ويشرب في كل يوم ، ولكن بمعدته شيئا من غير شك ، هو الذى خيل إليه ماخيل حين مد عينه إلى المرأة . ومن المحقق انه لم يكن يحس ألما ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين يطرأ عليهم المرض . ولكن لاسبيل إلى تعليل هذه الظاهرة الطارئة إلا بشيء أصاب معدته أو كبده ، وهو على كل حال قد استرد شيئا من طمانينته فعاد إلى شأنه يصلح منه ما افسد هذا الاضطراب . فلما بلغ من ذلك ما ارضاه أزمع أن خرج من غرفته دون أن يسأل هذه المرأة المشنومة عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .لقى فى روعه مع كثير من اللباقة والمكر ، أن من الحق عليه أن يسأل هذه المرأة التى تعود أن يسألها دائما ، والتى تعودت أن تصدقه دائما ، فمن يدرى لعل شيئا ألم به فغير من وجهه وشكله وهو لا يدرى وما ينبغى أن يظهر الناس منه على ما لا يحب أن يظهروا عليه ، وقدلقى نظرتة إلى المرأة فارتدت عينه مذعورة ، ثم عادت إلى المرأة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حلمت إلى قلبه جزعا وهلعا وإذا هو يجاهد ليحبس صيحة قد همت أن تخرج من حلقه فتملا الغرفة من حوله ، وتدعو إليه أهل الدار ، ولكنه رد هذه الصيحة إلى مستقرها ولم يتح

لها أن تنفجر واستأنف اضطرابه ذاك . ثم ثابت إليه نفسه بعد لاي
فيسرع إلى الجرس يدقه فإذا دخلت عليه الخادم رفع إليها وجهه وظل
صامتاً حيناً يريد أن يعرف أتنكر الخادم من أمره شيئاً . فلما رأى
الخادم كدأبها كلما دعاها إليه قائمة واجمة تنتظر أمره لاتنكر شيئاً
ولا تعرف شيئاً أولاً تظهر معرفة ولا إنكاراً قال لها فى صوت هادىء
يكاد يضطرب أنبئى سيدتك انى انتظرها واقبلت زوجه بعد حين
فراثة قائماً باسمها ينتظر مقدمها فلما رآته أخذها منظره كما تعود أن
ياخذها كل صباح وكل مساء ، وسألها هو اتنكرين من أمرى شيئاً ؟
قالت متضحكة : وماذا تريد أن انكر من أمرى ! انما انت كما تعودت
دائماً أن أراك رائع الشكل جميل المنظر خلابة للنساء . إلى أين تريد أن
تغدو اليوم فأنى أراك تكلفت عناية بزيك قلما تتكلفها ؟ قال وإلى أين
اغدو إلا إلى عملى . قالت فإن عملك لايحتاج إلى كل هذا التأنق . ولكنه
اعاد عليها قوله : افى الحق انك لاتنكرين منى شيئاً ؟ قالت مغرقة فى
الضحك فى الحق انى انكر منك هذا الإسراف فى التجميل . قال فى
شئء يشبه الذهول : أن هذه المرأة تنبئنى بغير ماتقولين . ثم القى
على المرأة نظراته الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مذعوراً يقول لامراته
التمسى لى طبيباً .

وقد عاد طيب وطبيب وطبيب ، عادوه منفريقين وعادوه مجتمعين
وفحصوا من جسمه كل ما يمكن أن يفحصوا وامتحنوا كل ما يمكن أن
يمتحنوا . فلم يروا به بأساً ولم يشخصوا له علة ولم يصفوا له دواء .
وقال له قائلهم : ما نرى بجسمك من بأس ، فالتمس دواء نفسك عند
نفسك فما نظن إلا أن فى ضميرك شيئاً يؤذيك على علم منك أو على غير
علم ، وقد غيرت المرأة فى غرفته مرة ومرة ولكن المرايا كلها جعلت
كلما التمس نفسه فيها ردت إليه صورة غير صورته وشكلاً غير شكله ،
وملأت قلبه فرقا وروعا ، وقد تسامع أعوانه واصحابه بأنه مريض منذ
لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون إليه ليعودوه يلقاه اقلهم
ويرد عنه أكثرهم وينبئ أولئك وهؤلاء من أمره بغير الحق ، تخرع
لهم العلل ، وتبتكر لهم الأدوية فيصدق منهم من يصدق ويكذب منهم من

يكذب ويشك منهم من يشك . وكنت من هؤلاء الأصدقاء الذين سعوا إليه وسألوا عنه ثم أتيح لهم أن يروه . وكنت أثيرا عنده كما كان أثيرا عندي لا أخفى عليه من ذات نفسي شيئا كما لا يخفى على من ذات نفسه شيئا . ولقد لقيته فبين لقيه من أصحابه ذات يوم فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه أخماسا لاسداس في أمر علة . نصدق نحن في حيرتنا ويتكلف هو لنا الحيرة تكلفا لا يكاد يخفى على فلما هممنا أن ننصرف استبقاني في لباقة وظرف فبقيت ومضى الحديث بيننا ألوانا ساعة من نهار ثم عدنا إلى علة فإذا هو يتحدث إلى بامر كله في وضوح وجلاء .

قلت ضاحكا . العلك قرأت هذه القصة الإنجليزية التي كتبها أوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جرى ، فإن فيها ما يشبه قصتك من بعض الوجوه . قال فإنك تعلم أنني لا أقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة أوروبية ولا أعرف أن هذه القصة قد نقلت إلى العربية . قلت : أولم يتحدث إليك قط متحدث عن هذا الكتاب وكاتبه . قال . سمعت أطرافا من الحديث عن أوسكار ويلد ، ولكن لم أسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلا ولا كثيرا فحدثني أنت عن هذا الكتاب قلت : لقد قرأته منذ زمن بعيد وأذكر أنه يعرض على قرائه قصة فتى حسن رائع الحسن ، جميل بارع الجمال ، اتخذ له صديق مصور ، صورة تطابق شكله جمالا وروعة . وقد اقترب هذا الفتى في مستقبل أيامه سيئات كثيرة واجترح أثاما مختلفة ، فبغضت إليه نفسه أشد البغض ، وقبحت صورته المصنوعة في عينه أشنع التقبيح ، فنفاها من حجيرات داره وغرفاته إلى حيث ينفي سقط المتاع . ولكنه كان يلم بها من حين إلى حين تزايدا من بغضه لها وسخطه عليها واستعذابا لهذا السخط وذلك البغض . ثم أصبح الناس ذات يوم فرأوه مقتولا إلى جانب صورته ، أراد أن يمزق الصورة فمزق صدره ، وقد أراد أوسكار ويلد فيما أظن أن يصور تأثير الندم على ما يقترب من الآثام في بعض الضمائر والنفوس ، فلم تكن هذه إلا مرآة لضمير دوريان جرى . رأى فيها ما كان يملأ ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة .

قال صاحبي في صوت يأتي من بعيد : وما أنا وهذه القصة . قلت في

صوت يأتى من بعيد أيضا : خشيت أن تكون قد قرأتها أو سمعت عنها
فأثرت في أعصابك تأثيرا سيئا ، فما أكثر ما تؤثر الكتب قيمها وسخيفها
في أعصاب الناس ، فتحملهم على غير ما أراد المؤلفون أن يحملوهم
عليه . قال صاحبى وعلى ثغره ابتسامة حزينة هون عليك ، فانى لم أقرأ
هذا الكتاب ، ولم أسمع عنه ، ولم أثار به قليلا ولا كثيرا ومع ذلك فإن
من حقه أن يقرأ ، قلت : وقد ندمت بعد ذلك على ماقلت - فالتمس في
اثناء نفسك وأحذاء قلبك خطأ لعلك قد دفعت إليه أو مساءة لعلك قد
قدمتها إلى برىء . فإنى أعلم أنا نجهل من أمر الضمير الإنسانى أكثر
مما نعلم ، ومن يدرى لعل فى ضميرك الخفى ندما على شيء أثبته ثم
أنسيته ولعلك أن استكشفته أن تصلحه وتستغفر الله منه فتقل هذا
الندم الذى أخشى أن يكون هو الذى ينغص عليك الحياة . وتركت
صاحبى حائرا مبهورا ثم انبثت بعد أيام أنه يمرض فى بعض
المستشفيات . فلما سألت عن جلية ذلك قص على محدثى عجبا من
الأمر . فقد كان صديقى هذا البائس من قوم كرام مات أكثرهم وبقي
أقلهم . وكان الذين ماتوا - رحمهم الله - يرتفعون عن الصغائر
ويمتنعون على الدنيات وتأبى نفوسهم فيما تأبى جحود العارف ،
وانكار الجميل . ورثوا ذلك عن آبائهم وأحبوا أن يورثوه أبناءهم فحال
بينهم وبين ذلك هذا التطور الحديث الذى غير مقاييس الأشياء ، وادار
أعمال الناس وأقوالهم على المنافع العاجلة والمآرب القريبة لأعلى
ما كان يالف أبائنا من رعاية الحق وتقدير المعروف ، وكان صديقى هذا
البائس أحرص الناس على أن يشبه الذين سبقوه من قومه فى كل
ما كانوا يأتون ويدعون من الأمر ، ولكن أحداث الدهر ، وخطوب الأيام
وما تحمل من رغبة ورهبة ومن إغراء وتنفير كانت أقوى من خلقه
وإرادته فلم يستطع أن يكون خليقا بالذين سبقوه من قومه . وإنما كان
خليقا بالذين عاصروه من أترابه كان قومه يستحيون من أنفسهم قبل أن
يستحيوا من الناس وكان هو يستخفى من الناس ولا يستخفى من
ضميره . ولا من الله وهما معه أينما كان . فلما قصصت عليه قصة
أوسكار ويلد كنت كأنما كشفت عن نفسه الغطاء فأصبح يتحدث إلى

امراته وإلى خاصته بأن هذا الوجه القبيح الذى كان يراه فى المرأة لم يكن وجهه ، فوجهه مازال جميلا رائعا وانما هو امرأة ضميره لأن ضميره بشع دميم .

ثم يمضى فى حديثه فيقول : لا تنكروا مما أقول لكم شيئا فإنى لا أرى هذا الوجه البشع إذا نظرت فى المرأة فحسب بل أنا أراه كلما خلوت إلى نفسى . أراه يحمله جسم كجسمى وأراه يجلس إلى غير بعيد ، ينظر إلى شذرا أول الأمر ثم لايزال يرفق بى ويظهر الرقة لى حتى اطمئن إليه فيحدثنى فى صوت هادى رقيق عن سينات تقدمت بها إلى الناس فيما مضى من الدهر ثم يقول لى فى صوت هادى يخيفنى أشد الخوف ليتك لم تفعل . فقد كنت أرانى جميلا فجعلتنى قبيحا بشعا ، وكنت أرانى سعيدا فجعلتنى شقيا بائسا فقد احتملت وحدى قبحى وبشاعتى وشقائى وبؤسى ، ثم أعيانى احتمال هذا النثل فرايت أن تشاركنى فى النهوض به فسالزكم منذ الآن كما يلزم الظل صاحبه ، وأى غرابة فى أن يلزم الضمير صاحبه ، وكان صديقى البائس يقول ذلك لأهله وخاصته فى صوت غريب يملأ قلوبهم خوفا وأشفاقا ورحمة وعطفا ، ثم كان يلح عليهم فى ألا يخلوا بينه وبين نفسه فلزموه وإطالوا البقاء معه ولكن بغضه لظله هذا . أو لضميره هذا جعل يعظم ويشد كما أن حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشد أيضا ، فقد رأى ضميره فى المرأة أول الأمر ثم جعل يراه فى الخلوة بعد ذلك ثم أصبح يراه حين يخلو إلى نفسه وحين يحيط به أهله وخاصته وإذا أمره ينتهى به إلى الجنون الثائر أو إلى ما يشبهه وإذا أهله مضطرون إلى أن يمرضوه فى بعض المستشفيات التى تعالج فيها الأعصاب المريضة .

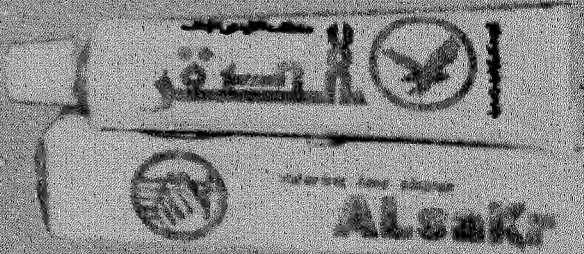
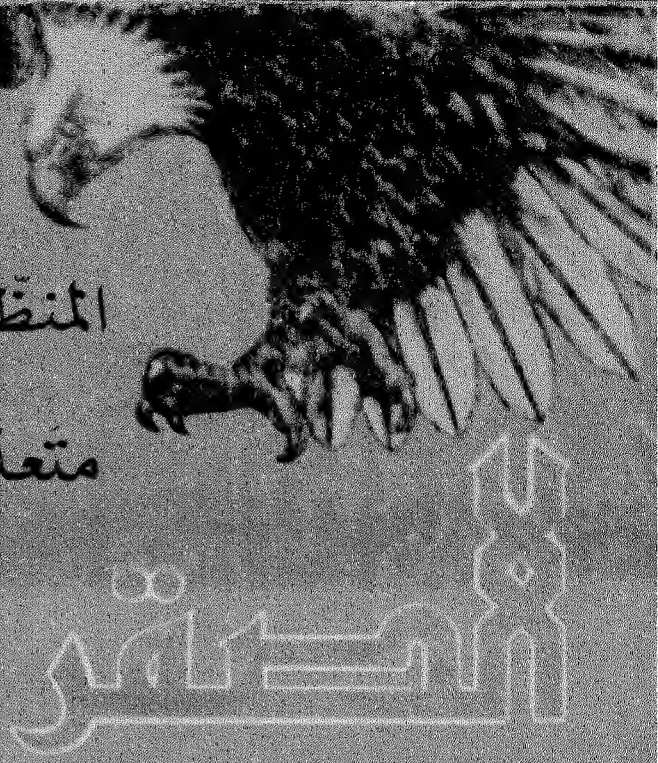
ليتنى لم أكتشف لصاحبى عن نفسه الغطاء ، استغفر الله ماذا أقول . وهل يزيد الكتاب على أن يكشفوا للناس عن نفوسهم الغطاء

رقم الايداع بدار الكتب ٧٢٩٢ / ١٩٨٩

الترقيم الدولى ٣ - ٣٢٣ - ١٢٤ - ٩٧٧ ISBN

آلات بلاستوك

المنظف السحري
الجاف
متعدد الأغراض



ينزيل الأوساخ والبقع الشحمية بأمان
ويترك الأيدي .. نظيفة .. ناعمة .. معطرة ..

لأيدي المحرقين - لغسيل الملابس النظيفة - لتنظيف الموبيليا
لتنظيف القيشاني والسيراميك - لتنظيف أجهزة البوتاجاز

إنتاج شركة الإسكندرية للزيوت والصابون